وصلات قصصية

كلثوميات



اسم الكتاب: وصلات قصصية.. (كلثوميات)

التأليف: إيناس طه عامر

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 88 صفحة

عدد الملازم: 5.5 ملازم

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 27980 / 2015

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 522 - 3

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 – 01012355714

1436 هـ

2016م



وصلات قصصية

كلثوميات

إيناس طه عامر



إهداء...

- إلى أبي وأمي دائمًا وأبدًا
- وإلى أستاذتي و«سيدتي الجميلة» الكاتبة القديرة: هاديا سعيد
- وإلى ساعة الصفا الكلثومية اليومية بيني وبين خالتي الحاجة: ليلى الشامي
- وأخيرًا وليس آخرًا إلى القارئ العزيز بدءًا من القارئة الأولى والداعمة الأولى وشقيقتي الأولى والأخيرة الفنانة: سحر عامر..، ووصولًا إلى قارئٍ ما في زمن ما سنصبح بالنسبة له تاريخًا ما.

مع خالص تحياتي ..

مقدمة

لست من "مجاذيب" أم كلثوم.. بل لست من عشاقها بشكل مطلق.. بمعنى أننى أحب عددًا غير قليل من أغنياتها لا كل ما تغنت به ولا كل آهة وهمسة وحركة صدرت عنها.. لكني بلا شك أحترم قيمتها الفنية بصرف النظر عن الدخول في خلافات فقهية وأراء بعيدة عن الناحية الفنية.. لكن لا أحد ينكر أن أم كلثوم كانت حالة وظاهرة لها أهميتها في عالمنا العربي بشكل عام ولمصر بشكل خاص. مما جعلها دون أن نشعر وشئنا أم أبينا تشكل ثقافة ما في حياتنا اليومية.. فما من أحد لم يصل إلى مسمعه ويتسرب إلي وجدانه صوت أم كلثوم في وقت «العصارى» أو المساء وهو يسير في شوارع وأزقة القطر المصري والأقطار العربية بشكل عام. فشكل له صوتها وبعض كلمات أغانيها وألحانها خلفية لمشواره أو مهمته التي يسعى لها. ودون إرادة منه سيجد نفسه يستشهد بجملة من أغنياتها؛ كأن نقول لبعضنا على سبيل المثال «عايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان»

أو «للصبر حدود».. أو «حب إيه اللي إنت جاي تقول عليه» وتنويعاتها بعد أن نحذف كلمة حب ونضع بدلًا منها ما شئنا.. أو «أروح لمين» و «يا ظالمني» وهكذا.. باختصار فإن أم كلثوم في زمن ما كانت تشكل «آهة» أو زفرة تعبيرية عن حالة شجن أصبحت مكونًا رئيسيًّا للشخصية العربية وربما الشرقية. هي الغلاف السوليفان الشجي لكثير من مواقفنا إن كان ألمًا أو فرحًا.. عشقًا أو جفاءً أو هجرًا.. أو مكابدة.. وأحيانًا تصوفًا.. حتى كأنني أكاد أجزم دون أن يكون معى إثبات ما بذلك أن أم كلثوم ككثير من أهل الفن والثقافة في العالم كله وُظِّفت مخباراتيًّا بشكل ما؛ لتشكيل الوعي أحيانًا أو لتأجيجه في أحيان أخرى. وكثير من الأحيان لتغييبه أو تخديره بصرف النظر عن رأيي الخاص فيها وفي ذلك الزمن «الجميل» الذي بزغت فيه. ولأم كلثوم في هذه المجموعة القصصية حكاية.. فحين كنت أكتب أولى قصص هذه المجموعة وجدتني دون قصد أو عمد مني أختار عنوانًا لأول قصة باسم أغنية قديمة جدًّا لأم كلثوم وهي: «يا مجد يا ما اشتهيتك» وهي لم تكن معروفة بشكل كاف لدرجة أن والدي- رحمه الله- وهو طبعًا من الجيل القديم لم يكن قد سمع بها من قبل؛ ولذا ترددت كثيرًا وحاولت أن أغير العنوان لكني لم أفلح.. وأحسست أني لا أرى سوى مطلع هذه الأغنية عنوانًا لهذه القصة. ونسيت الأمر واعتبرتها قصة عابرة وكتبت

قصة أخرى لم أجد لها عنوانًا؛ فتركتها دون أن أعنونها.. وبعد فترة طويلة وجدتني أكتب القصة الثالثة عن عمد وقصد متأثرة بحالة معينة تتركها في نفسي دومًا قصيدة «أقبل الليل».. وبالطبع وجدتني أعنون القصة بـ(أقبل الليل). في تلك اللحظة قررت أن أضع كل عناوين هذه المجموعة من جعبة أم كلثوم سواء عناوين لأغنياتها أم مقاطع حسبما تتلاقى أجواء القصة وأجواء الحالة الكلثومية.. أتمنى أن يرقى ما كتبته لأن يجد صدى في نفوسكم وتتقبله مسامعكم أقصد قلوبكم وأفئدتكم.. وأعتذر مسبقًا عما يكون قد ضل طريقه إليكم أو ضللت أنا في طريقي إليه عن سهو أو قصد.. مع خالص تحياتي

■■■

يا مجد يا ما اشتهيتك(*)

ربما على الآن فعل شيء من اثنين.. إما الهروب سريعًا قبل أن أواجه ذلك المأزق وإما الانتظار لمواجهته وجهًا لوجه.. بالرغم من أنني لم أتأكد بالفعل من كونه المأزق الذي أخشاه أم لا.. هكذا أخذت تتمتم وهي في مواجهة نفسها المعكوسة أمامها في تلك المرآة الرحبة العريضة.. تصلح من هندامها، تعيد ترتيب شعرها.. ثم أخذت تمسح براحتيها تضاريس القلق التي أخذت تتصارع على صفحة وجهها الأسمر.

اتساع عينيها وهي تفكر يزيدها قبحًا وبلاهة في وقت تحاول استنفار كل عناصر الجمال الهاربة منها علها تدعمها في ذلك الوقت العصيب.. مخاوفها لم تتأكد منها بعد، كل ما حدث هو أنه جاءها استدعاء من الإدارة، ليس هذا بالغريب.. لكنه التاريخ هو الذي يشير إلى شيء ما يثير هذه الزوبعة العارمة بداخلها، يجعلها تشعر أن عروقها وشرايينها تلتف حول جسدها النحيل وتنتفض بقوة تهزها لا تستطيع الفكاك منها. نعم إنه التاريخ الذي ينهى مدة ستة أشهر هي كل ما مكثته في هذا المكان الحلم.. ستة أشهر هي فترة عملها تحت الاختبار.. بعدها إما تستمر في حلمها أو تغادره.. لكن أحدًا لا يخرج من هذا المولد بلا حمص.

(*) أغنية قديمة من نظم أحمد رامي.. وألحان محمد القصبجي

هكذا طمأنها من حولها عندما التحقت بهذا العمل، أي أن قليلًا هم الذين يتم الاستغناء عنهم ويكون ذلك لأسباب قوية هي بعيدة تمامًا عنها.. ولكن لمَ لا؟ منذ متى وهي والحظ على وفاق!!؟ منذ نعومة أظافرها وهي تطارده.. تتربص له في كل الزوايا.. ومن خلف كل باب.. علها تنقض عليه يومًا ما.. هذه المرة فعلتها. نعم، حينما جاءتها هذه الفرصة التي لم تكن تتوقعها أبدًا.. لكنها إشارات القدر التي أشارت لها نحو هذا المكان فاتجهت إليه.. ربما لمحت ذلك الحظ الماكر يراوغها من بعيد.. يلمع سريعًا ثم يخبو كشهاب يشير إليها مبتسمًا.. يناديها ثم يختفي سريعًا خلف كل تلك الأبواب الشاهقة التي تمتلئ بها هذه الشركة العملاقة.

توقفت للوهلة الأولى، إنها لا تريد أن تلهث من جديد وراء السراب.. ولكن هل تترك الفرصة هلعًا من شيء مجهول؟ لذا كان عليها أن تسير متتبعة ذلك الوميض الأخَّاذ غير عابئة بشيء.. إذًا لماذا كل هذا الخوف الذي يتملكها الآن؟ هل لأنها بالفعل ذاقت طعم النجاح الحلو.. أم لأنها ولأول مرة تستمتع بمذاق أن تصاب بالحسد من زميلاتها وأقرانها، تستطيع أن تتحسس تلك البهجة الخفية التي تنتشي بداخلها حين تعلن خوفها مستعيذة بالله كل يوم من أعينهن التي ترمقها في ذهابها وإيابها وقد ارتدت ذلك الزي الوثير الذي أصبحت لا تقبل بأي حال من الأحوال أن ترتدي ما هو دونه، وذلك الحذاء الإيطالي الصنع الذي يجسد الأنوثة وهي تتحرك على القواعد الخشبية الرفيعة.

كم من مرة وأدت حلمها به من خلف واجهات العرض الزجاجية؟ أم أنها وللمرة الأولى أصبحت قادرة على أن تفتح خزائن أحلامها الخاصة جدًّا بأن تلتقي الأمير الذي سيفتن بفتاة من عامة الشعب ويجد فيها ما كان يبحث عنه لتكتب النهاية السعيدة لهما معًا، ثم هي بالفعل بدأت أولى خطواتها نحو تحقيق حياة كريمة لها ولأمها، فأصبحت تدخر جزءًا من راتبها رغم ما أنفقته على مظهرها في البداية إلا أن ما أصبحت قادرة على ادخاره سمح لها بأن تحلم بما لم تكن تسمح لنفسها بأن تحلم به من قبل مثل أن تمتلك سيارة، أو تدفع إيجار شقة في موقع راق.. موقع يخرجها من تلك الحارة اللعينة التي تعيش بها. كاد قلبها أن ينفجر وتتبعثر أشلاؤه في وجه تلك المرأة البدينة التي فتحت باب الحمام فجأة وهي ما زالت تتحدث إلى نفسها في المرآة..

يا "مِس"، الإدارة تطلبك!

لم تنبس ببنت شفة.. بل هزت رأسها فقط وهي تحاول أن تبتلع قلبها من جديد بعد ما كاد أن يتناثر في وجه هذه العاملة البدينة.. هيأت نفسها من جديد وهي تحاول أن تستعيد شتاتها، ثلاثة فقط هم الذين تم إنهاء خدمتهم خلال الأسبوعين الأخيرين.. ربما يصبحوا أربعة اليوم.. هكذا كانت تحدث نفسها حين نظرت إلى صورتها المعكوسة في المرآة من جديد، ثم قالت بصوت مسموع يستحث الثقة الهاربة منها: وربما لا.. لا ندري.

خرجت من ذلك الحمام الرخامي الفاره.. وهي تؤكد ضبط زيها الوثير، وتعيد في محيط الوهم رسم قصة شعرها.. أخذت نفسًا عميقًا ورفعت رأسها كما اعتادت أن تدرب نفسها منذ التحاقها بهذا المكان.. في طريقها إلى الإدارة حاولت ألا تلتقي عيناها بأي أعين أخرى ممن تعرفهم.

إنها العولمة. نعم، ما كنت أدري أن ذلك التعبير سيصبح قريبًا مني في يوم من الأيام إلى هذا الحد. تهبط أسعار أسهم الشركة الأم في بلاد العم سام في البورصة العالمية فتقرر تخفيض عمالتها في فروعها في أنحاء العالم، وبذلك تكتفي بالفترة القانونية التي تزج خلالها بمئات الشباب في حارات السباق تلك التي تنتهي بعد ستة أشهر تكون خلالها استعادت ما خسرته وأكثر، تليها ستة أشهر أخرى مع متسابقين جدد.. وهكذا، ليس لنا أن نعترض.. دخلنا السباق ونحن نقبل أن نخسر أو نربح، يكفينا شرف المحاولة في ملاحقة الحلم الأمريكي ستة أشهر.

هكذا أخذها تفكيرها إلى أن شعرت بالاختناق وهي تصعد ذلك السلم الحلزوني.. لا تدري لماذا يصيبها هذا الاختناق كلما وصلت إلى قمة هذا السلم؟ هل لأن في نهايته باب الإدارة؟ أم لأنه بالفعل يبدأ رحبًا ثم يضيق شيئًا فشيئًا كلما صعدنا لأعلى؟ إنها القمة دومًا.. تكون أقل مساحة ولا تقبل ألا يعتليها إلا القليل، يأتيها هذا السلم في أحلامها وفي كل مرة تصل فيها إلى قمته تصاب بالاختناق و تصحو من نومها فزعة.. ترى ماذا تخبىء لها قمة هذا السلم اليوم؟

أمام هذا الباب وقفت تلتقط أنفاسها وتبتلع مع لعابها الجاف غصة ثقيلة تقف في حلقها.. ترددت قليلًا قبل أن تطرق الباب وهي تحاول ترطيب شفتيها بطرف لسانها سريعًا.. رفعت رأسها من جديد.. وأخيرًا دخلت إلى حجرة السكرتارية الفارهة مبتسمة وهمست: صباح الخير.

صباح الخير.. تفضلي.

أشار لها محدثها في اتجاه المقعد وهو يقلب في أوراق أمامه، ثم كرر: تفضلي.. تفضلي.

ما زالت منتصبة القامة، رافعة رأسها حسبما عودت نفسها بالرغم من أنها كادت أن تجرح إصبعها وهي تمرر به خاتمها جيئة وذهابًا.. ثم أمسك بذلك المظروف الأصفر الكبير الكئيب الذي تعرفه جيدًا وناولها إياه مبتسمًا، تفضلي. تناولته وهي ما زالت ترسم على وجهها تلك الابتسامة المزيفة التي لم تفلح أن تبقى طويلًا، وقد خارت تحت ارتعاش خلجات وجهها، ثم خرجت وهي تمسك بذلك المظروف دون أن تنظر فيه.. اتجهت بخطى مسرعة نحو سلم «المجد» من جديد.

وأخيرًا لفظت تلك الدمعة المتحجرة في عينيها وزفرة قوية سجنتها من لحظة دخولها بهو الإدارة، حاولت أن تجد طريقًا آخر يقيها مقابلة أحد فيفتح عليها بابًا لا تحب أن تجد نفسها في مواجهته.. مشيت من طريق

خلفي فإذا بها تصطدم به. من؟ الأمير؟ همست له في سرها: نعم أنت الأمير الذي أخرجته من خزانة أحلامي المسحورة حينما قابلته لأول مرة.. لم تستطع عيناها أن تحيط ببراح وسامته، كانت تنظر إليه كمن أسقط في يده، لا تريد أن تحاول أي محاولة للإقبال أو الإدبار. كل ما كانت تفعله هو أن تتقبل تحية مولاها الصباحية وهي مبتسمة ابتسامة بلهاء. وبرغم ذلك كانت متأكدة من أنه يومًا ما سيبحث عن بيتها الفقير وسط بيوت الرعية ويتقبله رغم كل الفوارق الكبيرة التي تحول بينهما، لكنه سيجدها ويفيقها من غفوتها، ويقول لها: انتظرتك طويلًا. وتقول له: وأنا أيضًا

صباح الخير. حياها بابتسامته الظالمة.. فحيته بابتسامة باهتة.

لماذا أنت تحديدًا الذي تقابلني الآن؟ لماذا؟ ولماذا لم ألحظ هذا المشهد إلا الآن؟ رغم أنه تكرر أكثر من مرة!؟ لكنها لم ترد أن تراه.. هو وهي.. رأتهما غير هذه المرة يقفان معًا يحتسيان قهوة الصباح، يتحدثان بقرب العاشقين، وبهمسات المحبين.. لماذا اتضحت صورتيهما لديها الآن؟ ولماذا استقبلتها بهذا الفتور والرضا؟ ما كانت تتوقع من نفسها ذلك الموقف وهي التي كانت تحيك من خيوط أوهامها ثوبًا أبيضَ رائعًا تهيئه لنفسها منذ ستة أشهر. ربما لأن ما تراه هو الحقيقة بعينها وأما ما كانت تتصرفه هي معه فما كان إلا قراءة في سطور الحواديت المخبوءة في خزائن أحلامها. نزلت ذلك السلم الحلزوني، ثم اتجهت إلى مكتبها. ماذا عليها أن تفعل الآن؟

جلست أمام الحاسوب الخاص بها، ثم تذكرت المظروف الأصفر الكئيب.. فنظرت إليه بإعجاب: يا له من مظروف فاخر الورق.. الطباعة.. مكتوب بالإنجليزية.. شيء رائع حقًّا. فتحته لتقرأ ما كتب بداخله، بدأت بقراءة السطر الأول..: «يشكر مجلس إدارة شركة... الآنسة... على تعاونها مع الشركة خلال الفترة من... إلى... إنها ذات الصيغة وذات الكلمات التي قرأتها قبل الآن مع زملائها السابقين لها في هذا الموقف. حينها كانت تبدي تعاطفها معهم.

أدخلت الورقة بداخل المظروف مرة أخرى وهمَّت بأن تكمل ما كانت تفعله على حاسوبها، ثم تذكرت أن هذا المكان لم يعد لها.. لماذا؟ لم أخطئ بأي شيء.. التحقت بهذا العمل وأنا أشعر بأحقيتي فيه.. كنت من الأوائل على دفعتي، لم أدخر جهدًا يومًا في التحصيل الدراسي أو بعلاقتي بأساتذتي وكذلك زملائي.. لم أكن ممن تربوا في مدارس اللغات ولكن تعلمت الإنجليزية باجتهاد قوي مني، وبكثير من تضحية أمي لكي توفر لي ثمن تلك الدراسات في الإنجليزية والحاسوب.. زجيت بنفسي في معترك فرص كثيرة للعمل بكثير من الأماكن والجهات تناغمت مستوياتها ما بين الصعود والهبوط.. منها ما قبلته أو مما لم أكن أقبله من قبل تخرجي في جامعتي ومن بعد تخرجي.. وحينما التحقت بهذه الشركة حاولت أن أسير على «الطريق المستقيم»، لم تكن لي صحبة محددة.

لم أحاول أن أبدي رأيي بشكل واضح في أي من الأمور.. تجنبت أي تحزب بالإضافة إلى مجهودي المضاعف في كل شيء. حاولت أن تكون علاقتي بذوي الحيثية في هذه الشركة علاقة متميزة بها الكثير من المجاملات والتقدير.. مظهري تحملت من أجله ما هو فوق طاقتي حتى أكون في موضع مقبول ممن حولي.. إذًا لماذا؟. وماذا يجدي من لماذا؟ هناك حقيقة مؤكدة الآن وهي أنني لم يعد لي ارتباط بهذا المكان؛ ولذا يجب على أن أغادره الآن وفورًا.. همت بأن تغلق حاسوبها، ثم توقفت وهي تتمتم: تبًّا لكل شيء. لماذا أحافظ على التزامي المميت؟ فليغلق هذا الجهاز أو يفتح.. ليس لي شيء هنا، ثم أخذت حقيبتها وانصرفت غير عابئة بأن هناك بضعة أيام حتى يسدل الشهر أستاره وتحصل على راتبها وتنتهي فترة الستة أشهر بالتمام والكمال.

في رحلة هبوطها نحو واقعها الجديد تذكرت المرة الأولى التي دخلت فيه هذا المكان.. كم أبهرها هذا البناء الرائع والبهو الرخامي الرحب وذلك المصعد البراق، عاتبت نفسها في مراياه المتعددة.. أين أنتِ من ذلك اليوم حين كنتِ تخطين أولى خطواتك نحو المجد؟ كانت ملامحك أكثر ترتيبًا وتناسقًا عما هي عليه الآن، حتى هذا المصعد فقد بريقه الذي سحرت به يومها، توقف المصعد أمام البهو الرخامي الرحب وفتح بوابتيه لتخطو أولى خطواتها نحو المجهول.

كم حرصت على احتساب خطواتها وهي تسير فيه برفق خشية الانزلاق. لا تعرف لماذا تداهمها الآن رغبة قوية في الرقص حافية على بلاطاته المتسعة الباردة، عندما لفظها المصعد وجدت نفسها تركل حذاءها «الإيطالي» الأنيق وتخطو بخفة فراشة ورشاقة فرس على أرض ذلك البهو الرخامي البارد.. كم تمنت أن تفعل ذلك مرارًا ضاحكة من نفسها، ولكن الآن فرصتها الأخيرة لتحقيق ما تمنته.. ولم لا؟ ماذا سيحدث وماذا لديهم عندها؟ أخذتها النشوى واستدارت حول نفسها ممسكة بحقيبتها.. تلف معها في دورتها.

يا له من إحساس رائع.. وكأنها تطير.. ولكن لم يدعها رجل الأمن أن تكمل دورتها الثانية، إذ اصطدمت بنظراته المحدقة فيها فإذا بها تبتر استمتاعها بالدوران لتقف ثابتة فجأة أمامه لثوان أدركت بعدها أنها حافية.. ابتسمت ابتسامة بلهاء وأخذت تفتش بعينيها الواسعتين أين استقر حذاؤها الأنيق بعد أن ركلته؟، ثم ابتسمت من جديد بثقة مصطنعة وهي تقول: كيف حالك؟ ماذا فعلوا بك أنت أيضًا؟ أدركت مدى بلاهة سؤالها، من هم الذين فعلوا به ماذا؟ ربما ربطت بينه وبينها في كونهما جارين من منطقة شعبية واحدة طالما هربت من ذكرها، أو أن يعرف بها أحد من زملائها القاطنين في المجتمعات الراقية؛ لذلك كانت تتجنب أي حوار معه حتى لو كانت تحية صباحية، فإذا بها الآن تبتسم له وتسأله عن حاله وما فعلوه به! على الأقل ما زالت العولمة تبعد قليلًا عنه.

ابتسمت مرة أخرى بينما أخذت قدمها تتحسس الأرض إلى أن استقرت في الحذاء مرة أخرى، ثم ودعته وودعت معه حلم الستة أشهر.. وكأنها تخرج إلى الدنيا للمرة الأولى، تريد أن تسير على قدميها وتصافح أوجه الناس، وأخيرًا قررت أن تركب «الميكروباص» بعد مسافة قطعتها سيرًا في ذلك الشارع الذي تقع به الشركة وهي التي كانت دومًا تركب تاكسي سريعًا تحاشيًا لمقابلة جارها رجل الأمن في أي وسيلة مواصلات وحفاظًا على مظهرها.. لم تشعر بطول المسافة التي قطعها الميكروباص، وكأنها استسلمت لذلك المجهول الذي ينتظرها بارتياح غريب، يغمرها شعور بالاسترخاء والنعاس.. فاستسلمت له بمجرد وصولها إلى منزلها، احتضنت سريرها وهي ما زالت بملابسها.. وذهبت في رحلة نوم عميق، حين عادت من غيبتها هذه وجدت أمها بجانبها تتأملها.

همست لها: أثرتِ القلق في قلبي يا ابنتي، ماذا بك؟. سألتها: في أي الأيام نحن؟ أخبرتها بأنها الجمعة أي أجازتها الأسبوعية، بل إنها أصبحت في أجازة طويلة حتى إشعار آخر، ما زالت تلك السكينة الناعمة تحتويها، ولا تزال لديها رغبة في استكمال رحلة نومها الطويل.. لكن أمها حثتها على القيام لتتناول معها طعام الإفطار، فقامت بتثاقل واتجهت إلى شرفة حجرتها المتواضعة التي تستند وتساند تلك البيوت المتراصة في حميمية زائدة.

وقفت تستقبل نفحات الهواء الساخن وهي تصافح وجهها، وبيديها أخذت تفض اشتباك خصلات شعرها الملبد وترفعها لأعلى ليزداد تمردًا، ثم تركت وجهها بين كفي الشمس الملتهبة وكأنها بين كفي خبيرة تجميل وهي ما زالت مستمتعة بتلك النسمات الساخنة التي تلفحها سريعًا تاركة شعرها الغجري يلهو في تمرد مع تلك الهبات الساخنة من الهواء كانت جالسة على أرض الشرفة حين جاءتها أمها بصينية تحمل بعض «الساندوتشات» والشاي وجريدة الأهرام التي التقطتها بتباطىء حذر.. تحاول أن تتصفحها.. مرة أخرى تستحث أهدابها ضياء عينيها لتتابع بتثاقل وهدوء إعلانات الوظائف من جديد

■ ■ ■

تعتب عليًّا ليه؟.. أنا بإيديا إيه؟(*)

دومينوز

كلما أغمضت عيني هربًا منها وجدتها أمامي تلح عليّ في جنون صارخ.. تلك الصور التي ربما لا ترتبط ببعضها البعض، وربما ترتبط بوضوح شديد فإذا ما لامست إحداها وجدتها تستجلب باقي الصور وكأنها وكأنني منها كآخر قطعة دومينوز متراصة تنتظر تلك النقرة الساحرة لتتداعى كل القطع واحدة تلو الأخرى في عرض مذهل، مشحون أنا بها بدرجة كبيرة.. أريد أن أطردها خارج مخيلتي، خارج نفسي، خارج عقلي، أريد أن أوقف ضجيجها.. فكرت أن أحكي عنها بل أصرخ بها لأحد.. أي أحد. لكن الناس عادة يتكلمون ولا يستمعون.

لن يهتم أحد بأن يستمع لسلسلة تستدعي حلقة منها باقي الحلقات.. هذيان.. إرهاصات.. مخزون من مشاعر قديمة.. لا أعرف كيف أصنفها لكني أعرف فقط أني أريد أن أطرحها خارج تلك «الجمجمة» المتعبة، وأظن أنني وجدت الحل، سامحوني إن كنت سأثقل عليكم. لا أعرف إن كنتم قد سمحتم لي بذلك أم لا.

(*) مقطع من أغنية فات الميعاد.. كلمات: مرسى جميل عزيز، ألحان: بليغ حمدي

لكن لا سبيل أمامي الآن سوى أن أبدأ فأطرحها عليكم أنتم. وأعتذر بداية من عشوائية أفكاري المشوشة، فالصور تدفع بعضها بعضًا ولا استطيع أن أمسك بأول الخيط.. لكنني سأترك مشاعري تنقل لكم في بث مباشر تلك الصور التي تكاد أن تنقض عليّ أمامكم وأنا منها عاجز لا أستطيع الفرار.. إليكم الآتي:

الصورة الأولى صورة ذلك الصبي الذي رأيته هذا الصباح، لا أعرف لماذا تلتصق بذهني إلى هذا الحد؟ وجهه الذابل الملوح بآثار الأتربة التي أصبحت طبقة من طبقات جلده، عيناه البريئتان.. تكاد تلمح ذكاءهما في لمحة خاطفة حين يرفعهما سريعًا محاولًا أن يتبين من زجاج الباب الذي يقف أمامه أين هو الآن؟ ثم يتجول ببصره سريعًا يتصفح أوجه الناس من حوله في لحظة عابرة عبور البرق، أما فمه فهو دقيق مضموم في توتر لكنه يسمح قليلًا بالحرية لابتسامة باهتة مصطنعة خجولة.

شعره ملبد.. رث مثل ملابسه التي تسعى أن تكون مرتبة متناسقة في خجل واضح، سرواله قصير يظهر كاحله الضعيف الذي يعلوه القشف، حذاؤه يلتمس الجهد في مقاومة عوامل التهرئ. ما الذي يجذبني إليه بمثل هذه القوة.. أكاد أذهب لأقف فقط بجانبه وأضع كفي على كتفه لولا قلقي من أن يثير ذلك ريبة ما. احتوته عيناي حتى إذا تحرك نحو بوابة «المترو» لينزل إلى محطة وصوله التي اقتربت.. ظلتا معه تصحبه وتلاحقاه برغم

الزحام الشديد، قلبي يخفق وأكاد ألمحه بصعوبة شديدة من بينهم.. أخشى عليه من ذلك التزاحم الغير مترفق بضآلته، جاءت المحطة ونزلت الكتلة البشرية.. وضاع الصبي من أمام عيني، أغلقت بوابة «المترو» من جديد، وزعقت صافرته ومضى القطار، ونظراتي ما زالت تلهث باحثة عنه.. إلى أين ذهب؟ وإلى أين يتجه؟ ومن هو؟ وما هي حكايته؟، ضاع الصبي وضعت أنا معه.. أنا؟!.. آه.. تلك هي الصورة الثانية التي تلاحقني.. أصوات تلاميذ تصيح وتصرخ.. ضحك.. سباب.. وذلك الطفل الصغير النحيف يضحك مجاملة في قلق بالغ، يدفعه الصغار نحو الباب العالي الشاهق دفعًا، وهو لا يرغب في ذلك لكنه لا يستطيع المقاومة.. ضعيف.. هزيل.. خجله وارتباكه يهزمانه أمامهم.

أسقط في يده وترك لطوفان لهوهم وعربدتهم جسده المسكين، يجرفونه معهم في تدافعهم خارج الفصل في غياب مدرسهم الذي حضر جسده المارد فجأة؛ ليضبطهم متلبسين بالخروج على نظامه، صراخ الصبية هيجه كثور مندفع، إنه قادم.. سريعًا وإذا به ينقض.. ينقض عليّ أنا.. أنا ذلك المسكين الذي جرفه السيل دون قصد أو عمد. وقفت فجأة وحيدًا.. لا أعرف كيف تلاشت جموع الفئران الصغيرة التي دفعتني دفعًا إلى هنا دون إرادة، كل تخندق في «تختته» أما أنا فصرت أعزلًا في مواجهة المارد «الأستاذ» الذي أحكم قبضته البدينة على رقبتي النحيلة والكف الأخرى

تهوي بكل عزم فيها على وجهي المرتعد.. مرة.. ومرة.. ومرة.. إلى أن جرفتني موجة بنفسجية عارمة غمرتني وسحبتني معها إلى موجات متعددة الألوان أخذت تومض وتختفي مع رنين أجراس جميلة وبالونات ملونة تتطاير كفقاعات صابون وأصوات أطفال رقيقة رنانة تناديني وتدعوني للعب معها في تلك المساحات الخضراء التي أضاءت شيئًا فشيئًا إلى أن صارت بيضاء ناصعة احتوتني وذبت فيها كأنني سحابة تتطاير في وداعة وسلام.. كزهرة لقاح تتهادى في أوائل الربيع.. طرحة العروس التَّلِّي البيضاء تظللني كغمامة.. ابتسامتها الوادعة المسروقة من الحزن تومض وتختفي سريعًا بين السحب.. خفقات قلبي تعزف لحنًا أعرفه.. لأبهى دقات دفوف.. تتعالى.. بل هي طبول أكاد أرتجف على وقعها.. نعم. نعم، أنا هذا الذي يبتسم أكاد لا أعرفني.. آه نسيت أن أقول لكم هذه هي الصورة الثالثة.. لا أعرف سر ملاحقتها لي الآن ليس هناك سببٌ لاستدعائها.. الفرح!.. ها.. كلمة لا أتعامل معها كثيرًا، فدائمًا ما تتجاهلني وأتجاهلها؛ عملًا بالمثل.. نعم إنها صورة فرحي.. هذا أنا وأنا أقوم بدور «العريس». لا.. أنا لا أعمل ممثلًا.. وإنما هو دوري في الحياة الذي كتبه الله لي.

كان أبي حريصًا كل الحرص أن يزوجني في سن مبكرة.. بعدما حصلت على دبلوم التجارة المتوسطة وأكملت للتو العشرين من عمري، كنت وحيدًا كما أنا الآن؛ لذا لم ألتحق بالخدمة العسكرية وقد بذل أبي

كل جهده ليجد لي وظيفة.. وأخيرًا، صرت بائعًا في أحد المحال التجارية فيما بعد أصبحت تلك المهنة هي الوحيدة التي أجيدها، حتى وإن غيرت المكان أكثر من مرة.. كنت دومًا كصفحة بيضاء يملك أبي أن يخط بها ما يشاء عن رضًا مني، فقد كان رفيقًا بي ولي.. وكنت أطمئن لاختياراته.. حتى حين اختار لي زوجتي لم أتردد ولم أفكر كثيرًا.

كانت ابنة أحد الجيران التي تربت على الفقر والحاجة مثلي.. كان أبي يرى أن عليّ أن أبني أسرة وأنا في سن صغيرة وأن يكون لي «عزوة» من الأبناء تعوضه عن وحدته هو أيضًا في طفولته، حين ماتت أمه وهو رضيع ثم لحق بها أبوه بعد سنوات قليلة، آه نسيت أن أكمل لكم الوصف التفصيلي لذلك الفرح الذي كان بالفعل فرحًا لأبي وليس لي، بل الأصدق أن أقول إنني يومها فرحت لفرح أبي بي، شعرت به في كل سكنة وكل حركة وكأنه يومها قد أفرغ كل ما كان قد ادخره من فرح طيلة سنوات عمره، حتى أمي لم أشعر بذلك القدر من الفرح لديها، أما أنا فقد كنت خائفًا قلقًا كعادتي من التمادي مع إحساس الفرح. وماذا ستخبئ لي الابتسامة؟ لكنني قررت أنا أتعايش مع الدور الذي رُسم لي وقررت أن أمثل دور الشاب الفرح بيوم زفافه فتركت جسدي لرقصات الشباب أيضًا كقطعة دومينوز يحركونها حسبما يتراءى لمشاعرهم الصادقة، غناء وضجيج وصخب.

أُخذت أخذًا إلى أضواء وألوان وموجة عارمة من البهجة النشاز التي حطمت إيقاع حياتنا الجاحدة، لكني لم أتصور نفسي أبدًا أن يليق بي الجحود أو أنني من الممكن أن أرتدي ذلك القناع أو أوصف به، إلا إنني اليوم ضبطت نفسي متلبسًا.. وقحًا.. ولأول مرة اكتشف قبح ملامحي في تلك الصورة الأخيرة التي تأخذ بتلابيبي وتنهرني في عنف.. تلك الصورة الرابعة في ذلك البث المشوش العشوائي، لم أكن لأتخيل أن أترك لعربدة أحلامي ذلك الجموح حين زفت لي أمي خبر الحكم بتمكيننا من ملكية تلك الأرض الفضاء التي وعيت على الدنيا وأبي يجاهد مع غيره من البائعين في إثبات ملكيتها.. تلك الأرض «الوقف» التي وهبتها لهم «ابنة الباشا» عن طيب خاطر.. وتنازع عليها ورثة من كل حدب وصوب.. لم يتعارفوا أو يتآلفوا إلا علينا.

لم يكن للسيدة قرابة من الدرجة الأولى فقد ماتت وحيدة هي أيضًا، كبرت وأنا أذكر نفسي دومًا بأن لي حلم يخبئه الزمن.. أنتظره رغم شواغل الحياة.. لم أكن أعرف ماذا سأفعل به حين يتحقق لكني كنت أنتظره سنة بسنة مع سنوات عمري، والآن تخبرني أمي بأنه قد تحقق بالفعل.. كان فرحي بذلك الخبر أكبر وأوسع من فرحي يوم زفافي ولا حتى يوم ميلاد طفلي الأول أو أي من أطفالي الأربعة بعده، فقد تراقصت أمامي كل الأماني المخبأة وتراقصت أيضًا في خبث كل ديوني وكل وعودي العاجزة

لأطفالي.. حقيقة.. أصبحت في لحظة أكثر منهم طفولة، وظللت أفكر وأبتكر كثيرًا من الممحاكات كي أهرع لأبي وأتصنع الاندهاش والتعزز عما سيمنحني إياه من هذا الحلم القديم الذي طال انتظاره.

وأخيرًا بعث لي أبي ولم أطق الانتظار لحظة واحدة، وجئته كعفريت من الجن في مملكة سليمان.. فقابلني وهو فرح متهلل ليخبرني بالمفاجأة الكبرى: اشتريت قبرًا.. ماذا؟ قبر؟!.. نعم يا ولدي اشتريت قبرًا.. ولله الحمد.. كنت أنتظر تحقيق ذلك الحلم منذ زمن. أن يكون لي قبرٌ أمتلكه وأورثه ذريتي من بعدي.. قبر يغنيك عن المذلة والكسرة والإحساس بالهوان والرخص. كنت أتخيلك دومًا في موقفي وأنا ذلك الصغير الذي لا يتعدى الثمان سنوات وأبي جثة باردة ممدة أمامي لا أعرف كيف أتعامل معه.. لم يكن لنا أحد ولا مال.

وأخيرًا قام أهل المنطقة بجمع المال ليكفن أبي ويواري في قبور الصدقة.. شريدًا كان أبي وشريدًا صرت من بعده. ولم أكن أتمنى لك أبدًا أن تكمل مشورانا.. يومًا ما ستحتاج أن تواريني وتواري أمك قبرًا لا تتسوله.. الآن سأتركك يا بني وأنا مطمئن.. وهنا قاطعته بقسوة لم أكن أتخيل أني أخبئها بديلًا للحلم الذي فقدته.. تطمئن عليّ بأن يكون لي قبرٌ؟! وهل أعيش أنا أصلًا لكي تطمئن على قبري؟ تطمئن على بقبر!.. وأنا قاب قوسين أو أدنى من السجن لأني لم أسدد ديوني التي كبلتني بها أحلامك أيضًا؟ نشتري الموت بالحياة؟! يا لها من صفقة.. أي حياة تلك؟!

ظل أبي متأثرًا حزينًا صامتًا، وأخيرًا قال في هدوء بائس. اهدأ يا بني.. كم تمنيت أن أمنحك الدنيا وما فيها.. وكم تمنيت أن أحج أنا وأمك. ولكنَّ المبلغ لا يكفي.. العمر يذوب ويضيع، وقد اكتفيت من الدنيا بك وأولادك ولم أعد أطمع في شيء إلا في نهاية مطمئنة لي ولك.. أما أنت يا ولدي فالمال يذهب ويجئ، لو أعطيتك كله لنزفته سريعًا ولن يبقى لديك شيء لتلك النهاية المحتومة. سامحني يا ولدي، كنت أظنك ستفرح كما فرحت أنا بهذا القرار.

أسامحك؟ هكذا صرخت في وجهه دون أن أشعر. فليسامحك الله أو لا يسامحك ولأذهب أنا وأولادي إلى الجحيم.. شريدًا أيضًا خرجت وتركت أبي تصارعه الأفكار والأمنيات والحسرة.. لا أعرف كم من الأمتار أو الكيلومترات سرت؟ لكني انتبهت أخيرًا وأنا أجهش بالبكاء.. وأحدهم يربت على كتفي يا بني لا تفعل بنفسك هكذا، شد حيلك. كلنا لها.. انتبهت مصدومًا هل مات أبي؟ أين أنا؟ ومع من أسير؟.. يبدو أنني أسير في جنازة لا أعرف فيها أحدًا.. ولا أعرف ذلك الراحل في الصندوق الخشبي.. سرت مطأطئ الرأس.. شارد الذهن.. أراجع في ذاكرتي كل ما حدث، لا أعرف إن كنت أعيش لحظة حاضرة أو لحظة مستقبلية، لكنني أسير إلى لا شيء، وهمهمات الرجال الموحَدة الموحِدة من حولي قد أيقظتني من غفوتي.. كنت ما زلت أتمتم: لا إله إلا الله، حين توجهت إلى سلم «المترو» عائدًا إلى بيتي وأولادي.

■ ■ ■

قصة مكررة.. أو مقررة(*)

وأصدق كل كلمة قلتها لي.... وأكذب في هواك ظني وعينيا

يغريها الثناء.. وتسعد كثيرًا بالمجاملات والإطراء حتى وإن بالغت أو كذبت، تفرح بكل ما هو مبهر ومحط إعجاب الآخرين، يبكيها أن يحصل غيرها على ما تمنته. ومع ذلك جاءها من هو محط إعجاب كثيرات، لكنها رغم ما يملك من علم ودين وخلق ومركز اجتماعي وعلمي رفضته؛ لأنها سمعت إحداهن تصفه بالفلاح.. وبالفعل لم تجد فيه من الكذب والزيف ما يغريها وما تستطيع أن تثمن قدْرها من خلاله. ولكي تقنع نفسها بصحة موقفها ادعت عليه ما ليس فيه، مضى ومضى غيره.

تسرب تألقها من بين يديها، وتساقطت أوراق ربيعها.. وأخيرًا وجدت ضالتها. إنه حلمها الذي انتظرته طويلًا، رغمًا عن كل الحقائق الجلية الماثلة أمامها، لكنه هو من يستطيع أن يأسرها بكلمة.. بهمسة.. بكذبة، يتقن تمثيل دور المصدوم الجريح إذا ما انتقدته أو عبرت عن استيائها أو حتى غيرتها، فإذا بها هي من تريق عنده آلاف الاعتذارات؛ ليتكرم عليها معاتبًا متنهدًا:

(*) مقطع من أغنية "أقولك إيه عن الشوق يا حبيبي" من كلمات عبد الفتاح مصطفى وألحان رياض السنباطي

«إنتي مش عارفة إنك نور عينيا واللا إيه؟» تصيبها تلك الكلمة بالجنون، وتبكي من أجل أن يسامحها.. وتستعطفه من أجل أن يقبل منها هديتها تأكيدًا على الغفران، لكنه ذات مرة غضب وذهب إلى غير رجعة، ولم يشفع لها عنده علبة مجوهرات ورثتها عن أمها كانت قد قدمتها له لتساعده في إتمام مشروعاته المتعسرة.

ما زالت تبكي «كبرياءه» وتعففه حين رفض أخذها في البداية وأخيرًا قبل على مضض زائف إرضاءً لها بعدما أقسمت عليه ودعت على نفسها مرارًا.. ما زال دمعها المقهور حرقة عليه يلومها حين تتذكر كلماته: أنا تتقطع إيدي ولا تمتد على حق لكِ.

■■■

أقبل الليل.. (*)

وأخيرًا.. حان الموعد ونام صغيراي.. نعم صغيراي اللذان أنجباني ولم أنجبهما، صغيراي اللذان تخطيا السبعين من العمر!، لا سبيل للعجب. هما بالفعل صغيراي اللذان أحبهما حبًّا جمًّا وأشفق عليهما كثيرًا.. وأدور في رحى متطلباتهما ليل نهار، وإن لم أتقن الدور حتى الآن كما ينبغي، ولم أملأ كيان تلك الوظيفة التي وظفني بها القدر، لكنني على الأقل أتنفس هواجسي نحوهما فتقبض على أفكاري إن سمحت لنفسها بالتحليق بعيدًا عن أجوائهما.

يوميًّا أنتظر هذا الموعد وأنتظرك، يوميًّا أحاول أن أفرغ سريعًا سريعًا من كافة الأعمال المدرجة على جدول المهام اليومية الغير مسجلة، والغير مكتملة. يوميًّا أجد ذلك الموعد وقد حل ورحل في غفلة مني، فكثيرًا ما يأخذني النوم وأنا أتهيأ لاستقبالك.. وأحيانًا أخرى أجد نفسي مسلوبة الوعي مشدوهة الوجدان وأنا أبحث عن لا شيء. أصبعي يضغط على زر، وعيني تتابع صورًا لا معنى لها.. ولا ترجمة عندي. نعم قلبي ما زال ينبض، لكن ذهني على سفر، لكنني اليوم ومنذ الصباح قررت ألا أدع موعدي معك يفوتني كما فاتني الأيام الماضية.

(*) قصيدة من كلمات أحمد رامي، ألحان: رياض السنباطي

اليوم رتبت مع نفسي أن أفرغ من مهامي في وقت مبكر يمكنني وأنا في حال لم تغادره طزاجة الساعات النشطة في كياني أن أكون مهيئة للموعد حين يتجه الصغيران للنوم. والآن حان الموعد، لن أدع ثرثرة أفكاري تأخذني وتقصيني مرة أخرى. ولن أدع أيضًا ذلك الصداع النصفي يعكر صفو مزاجي، فأنا في أحسن حالات الاستقبال الآن. مشاعري مستحضرة تمامًا.. وذهني سجل توقيع حضوره.. وقلبي ما زال يخفق، بل ربما يخفق الآن بأداء متميز أكثر. فقط يضايقني ذلك الشريط المطاطي الذي يقبض على خصلات شعري المتوترة، وها هو.. سألقيه بعيدًا وأمشط بأصابعي تلك الخصلات، أو لا أمشطها، بل سأفيقها أيضًا من سباتها وأوقظها وأدعها تطيح بشحنات التوتر بعيدًا.. ما زلت أثرثر ولا أبدأ.. هي وتيرة حياتي دومًا بكل أسف أدع نفسي يوميًّا لموجات أفكاري تأخذني بعيدًا إلى حيث جزيرة ليس بها أحد، وتعود الموجات ولا أعود معها وأبقى وحيدة معزولة إلى أن تأتي إليّ من جديد فتعود بي.. ولكنني حين أعود أجد أيامًا قد مضت، بل شهورًا.. بل أعوامًا.. فأجد أن موعد التنفيذ قد هرب وأنا لا أزال مترددة ما بين المد والجزر.. هكذا هي أيامي وسنيّي التي سرقت بقرار مني وبعلمي، ولكن بذهن مسافر يبحث عن لا شيء.. لكنني اليوم مستعدة ومشتاقة جدًّا لأن أفعل ما تعيقه تلك الموجات من فعله كل يوم.

الآن سأبدل ثياب يوم مكتظ بأتربة وصابون وصلصة وشراب فوار لإذابة الأملاح.. لا وقت لأخذ حمام الآن.. لا أريد أن أضيع وقتي أو أن تذهب حالة الاستعداد والتهيئ لموعدي الآن.. فقط سأبدل ثيابي بثياب النوم.. خطر لي الآن فكرة خبيثة.. أن أرتدي القميص الوردي الناعم المخبأ في خزانة الأحلام المنتهية الصلاحية لم أعتد على ذلك ولكنني أود الآن أن أترك لمشاعري العنان.. سأدعها تحلق ولن أقيدها. الأهم من ذلك أن أدع الثرثرة وأهم بالتنفيذ.. الحمد لله أسمع جيدًا ذلك الغطيط الذي يؤكد لي نومهما. وها أنذا بالقميص الوردي.. وشعري منتفض ثائر.. وهمسات هواء خريفية تروح وتجيء على استحياء.. سأزيد من سرعة المروحة قليلًا.. وأخفض الضوء قليلًا أيضًا وها أنذا في مواجهتك.. ولكن ما هذا؟ ما زالت هناك بعض الأتربة على المنضدة برغم أنني طوقتها اليوم جيدًا؟. أوووف، لا لن أدع اللحظة تمر. ولن أدع تلك الذرات الترابية تغطي مساحة مزاجي اليوم أيضًا.

تبًّا لها ولكل أدوات التنظيف والأعمال المنزلية.. و.. كفى ذلك.. فلأبدأ.. ها أنذا أوقد الحاسوب وأضع السماعات على أذني بشكل منضبط.. وها هو البرنامج المفعل لصوت الموسيقى.. وها هي أغنيتي الأثيرة.. التي بعدت عنها كثيرًا خلال شهور ماضية.. والتي لم تكتمل لقاءاتي بها أبدًا.. لكنني اليوم لن أدعها تهرب مثل كل مرة.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. هيا يا ست الكل..

اطربيني.. يا سلام.. رائعة بدايتها الموسيقية تثير في نفسي الكثير من الشجن وأستشعر فيها تلك الموجات النيلية تتراقص على وقع الأضواء، أقبل الليل.. أقبل الليل يا حبيبي. يا سلام، كمان.. يا حبيبي.. أقبل الليل وناداني حنيني يا حبيبي.. يا حبيبي.. ما زالت تلك الدمعة تهل مع تلك البداية الساحرة.. وتلك الموسيقى التي تبعد بي إلى جزيرة أخرى لم أعرف عنوانها بعد.. كم أتمنى أن تبقى تلك اللحظة سرمدية لا تنتهي.. وسرت ذكراك طيفًا هام في بحر ظنوني.. ينشر الماضي ظلالًا كن أنسًا وجمالًا.. فإذا قلبي يشتاق إلى عهد شجوني وإذا دمعي ينهل إلى رجع أنيني.. يا هدى الحيران في ليل الضنى أين أنت الآن بل أين............ أين أنتِ يا ابنتي؟

اقتلعني تساؤل والدي فجأة من دنيا الأنس والجمال وقذف بي في أتون الخزي وأنا أجده أمامي.. آسفة.. لم أسمعك والله.. يا لغبائي ويا لتغفيلي.. ويا لحظي التعس.. قفلت بسرعة البرنامج ونزعت السماعات وجرت سريعًا لتبحث عن «الروب» لترتديه وقلبها ما زال ينتفض وهي تسرع خلف والدها تعتذر له وتطلب منه الرجوع إلى غرفته بينما هي حافية تحضر له كوب الماء الذي كان يناديها لتأتي به له بينما لا تزال الأغنية المبتورة تتردد في مسامعها محيرة بتساؤل يدور في رحى وجدانها: أين أنت الآن؟ بل أين أنا؟

■■■

يا ريت زماني.. ما يصحينيش(*)

امرأة من كوكب الشقاء.. هي أنا وربما أنتِ أو أنتِ، أنظر إليه بنظرات يستعر منها لهيب الحنق والضيق، ذلك الوجه الملائكي يستحيل أمامي إلى صفحة شيطانية تتصارع عليها كل آلامي المؤجل إطلاق سراحها وكل أحلامي التي وئدت مع تعداد سنوات عمره مضافًا إليها عمر شقيقتيه اللتين يملأ صراخهما خلفية حواري التفاوضي معه. نعم أتفاوض معه ولا أعرف من سيحرز تقدمًا على الآخر.

في الغالب أحرز هو عدة نقاط في مكان آخر بعيد عن طاولة مفاوضتنا.. صنع لنفسه تمريرة عبقرية من بين قدمي «ميسى» ليحرز هدفًا صاروخيًّا مدهشًا في عالم البلاي ستيشن بينما أنا أكاد أن أرتكب أبشع جريمة في حق الإنسانية.. أم تقتل طفلها البرئ؛ لأنه لا ينتبه لتلقينها المشحون بجحيم من الغضب.. وربما يتطور الأمر بأن تتجه نحو الطفلتين اللتين يشتعل صراخهما ويختلط بصراخ تلك الشخصيات الكرتونية القبيحة.. تلال من المهام تنتظرها، يضرب ضجيج إلحاحها في رأسها ضربات متلاحقة تسرع مع دقات الساعة لتنهي يومًا متكررًا من سلسلة أيامها المتأججة بقوى الدفع التي فقدت أداة التحكم.. فلا صراخ يوقفها ولا إضراب يعرف لها طريقًا أو وسيلة.

(*) مقطع من أغنية أمل حياتي.. كلمات: أحمد شفيق كامل، ألحان: محمد عبد الوهاب

لا شيء سوى أن تستمر في الدوران في تلك الحلقة المفرغة.. تحاول أن تستجمع بعضًا من هدوء مخزون لأوقات الحاجة وبعض من تركيز هرب أغلبه.. فتباغتها قرقعة آتية من المطبخ لتنتشل تركيزها من جديد.. زوجها يبعث لها برسالة من المطبخ بأنه يتفاوض هو أيضًا مع عصافير بطنه بعد يوم عمل طويل.. قرقعة الأواني تتلاحق لتعلن لها أن عليها أن تدرك ما يمكنها إدراكه من أثر فوضى تتوعدها وتتوعد علاقتها بزوجها.. انتفضت سريعًا وهي تدفع ابنها بيديها كأنها تضع عليه كل همومها دفعة واحدة.

وفي ذات الوقت تمهله لفترة وتمهل نفسها ليعاودا التفاوض من جديد.. انطلقت كقذيفة نارية مشبوبة نحو المطبخ وفي لحظة واحدة توقف كل شيء صوت القرقعة.. صراخ الكرتون وطفلتيها.. هدير الجماهير الغفيرة التي تهلل لهدف ابنها في مرمى برشلونة.. صراخها هي.. صوت الغسالة.. أفكارها المتلاحقة المجدولة عن عصر ثمرات الطماطم المطبوخة في الخلاط.. غسيل الأطباق المتراكمة في الحوض.. إعداد ميزانية الشهر تفصيليًّا.. اختلاس لحظات سريعة لتهنئة صديقتها بيوم ميلادها عبر صفحات «الفيس بوك».. تثبيت الزر المقطوع في قميص زوجها.. ساد الصمت للحظات وسادت العتمة لدقائق.. وأخيرًا جاء صوت طفلتها مستنجدًا: ماما.. إنتي فين؟ النور اتقطع.

■ ■ ■

وإذا الدنيا كما نعرفها(*)

عائدة للتو من بلاد لا تعرفها.. لم تلمس قدمها ثراها.. ولم يلثم هواؤها صفحة وجهها الباسم الآن، وكأنها في حالة عشق.. بل تنفسته مع عبير تلك الموسيقى التي امتزجت فيها درجات خفية من أجناس بشرية لم تلتقيهم أبدًا.. تباغتها نظرة فضولية فتسرع بافتعال نظرة تشبه تلك الأجواء المحيطة بها فتقتصد في تلك الابتسامة التي لا تخص واقعها وتنثر بعض علامات الضيق على ملامحها لتتناسب مع حقيقة وجودها في هذا الزحام.. فقد أنستها تلك الموسيقى التي لا تزال تعزف بداخلها تلك العربة المؤنثة المكتظة بكثير من الهموم والمشكلات الوطنية.. الوطنية؟ الوطن؟!.. يااااه..

هل عدت لذلك الوطن مرة أخرى؟ ذلك الوطن الذي ضاق بي وضقت به.. عتقت في عنق زجاجته التي وعدنا بالانعتاق منها في القريب.. ذلك القريب الذي لا يأتي أبدًا.. تخمرت في ذلك المزيج اللا آدمي طيلة ثلاثين سنة.. لم أبرحه ولم يبرحني حتى ترك آثار عفونته على كل خلية انتشت منذ قليل على وقع موسيقى «بيسيه» ذلك الاسم الذي لم تسمع به قبل ساعتين من الآن.. عهدها بما يسمى بالموسيقى الكلاسيكية لم يكن موثقًا لا من قريب ولا بعيد

(*) مقطع من قصيدة الأطلال.. شعر: إبراهيم ناجي، ألحان: رياض السنباطي

كعادة جيلها.. كعادة مجتمعها.. كعادة ثقافتها.. كعادة انتمائها الديني.. لم تكن لتسمح لذائقتها باستقبال تلك النوعية من الموسيقى التي توصف من غالبية تلك الشريحة «الوطنية» التي تنتمي لها وتلتحم معها الآن في عربة السيدات بمترو الأنفاق بـ «الرقع والخبط».. نعم للصراحة وللحق لم تكن تستسيغ تلك النوعية من الموسيقى أبدًا.. بل الأرجح أنها كانت قد قررت في زمن ما لا تعيه أنها لن تستسيغها أبدًا.. إلى أن جاءت محاضرة الموسيقى التي حظيت بحضورها منذ ساعتين فقط.. فاجأتها افتتاحية «أوبرا كارمن» هكذا عرفتها لهم أستاذة الموسيقى بأكاديمية الفنون التي قررت أن تغير جلدها بالدراسة فيها.

في الواقع أن تغيير الجلد تعبير قد يخص من حولها ممن نطلق عليهم «الآخرون» أما هي فلا ترى أنه تغيير للجلد بقدر ما هو محاولة لإعادة اكتشافه والتعرف عليه من جديد.. ذلك أنها تشعر بالفعل أنها تمتلك تحت تلك الطبقة الجلدية مخزون عميق.. اجتمعت وامتزجت به كل الألوان.. فهي متدينة بذلك القدر الذي قد يصنفها به هؤلاء «الآخرون» بالتطرف أو بذلك المصطلح الصهيوني «الإرهاب» وهي شعبية في نظر الذين يصنفون البشر حسب قدراتهم المادية التي حكمت عليهم بسكنى المناطق اللا آدمية والذي يأخذ صكًّا يسمح بإطلاق مصطلح «بيئة» عليها وعلى مجتمعها.

بيئة تلك الكلمة المنحوتة من صخور العنصرية المتجملة بدهانات خفة الظل التي يقال إنها صفة مصرية.. وهي جادة جدًّا شكلًا وموضوعًا بالدرجة

التي تجعل كثيرين ممن لا يعرفونها في محيط مجتمعها الذي يعشق توزيع الألقاب ينادونها بـ «دكتورة».. لا تعرف لماذا؟ هل هي النظارة الطبية؟ أم ذلك الوجه الصارم الذي تخفي خلفه شخصية مرحة محبة للضحك والتهريج أحيانًا.. أم ملامحها «العلمية» التي قد لا توحي بأنها تخفي الكثير من الولع بالأدب والرومانسية والفن والشعر والموسيقى.. ذلك الولع الذي دفعها في خطوة جريئة لدراسة التذوق الفني بأكاديمية الفنون.

حسنًا.. لنعد إلى كارمن وبيسيه من جديد.. الغريب أنها لم تكن موسيقى «لايت» كما يسمونها.. أو موسيقى رومانسية حالمة.. بل على الأغلب كانت تشبه كثيرًا ذلك التوصيف الشعبي بأنها محض «رقع وخبط» خاصة ببدايتها.. هي تعرف تلك البداية جيدًا.. تتذكرها منذ كانت صغيرة حينما كانوا يستخدمونها في برامج الأطفال في فقرات السيرك العالمي تحديدًا.. لكن محاضرة الموسيقى ربما لفتت نظرها.. أقصد سمعها إلى ذلك النسيج الهارموني الذي لم تكن لتتعرف عليه وحدها.. وبالأحرى لم تكن لتسمح لنفسها بالتعرف عليه.. تأخذها المقدمة الصاخبة إلى منحنى هادئ جميل تشتم فيه عبق زهور الزنبق المنداه بنسمات باردة منعشة لهواء جبال الألب أو البرانس.. لا تعرف.

هي مزيج منوع من ثقافات مختلفة.. فرنسية إسبانية وربما عربية أندلسية.. فلامنجو.. ربما.. غجرية.. أرستقراطية.. ربما أيضًا.. المهم أنها صدمتها.. باغتتها.. جذبتها إلى كون آخر غير الذي تنتمي إليه

جسديًّا لا روحيًّا.. فهي لا تنتمي إلى أي مما يصنفها به الآخرون.. بل هي أصلًا لا تنتمي إلى هؤلاء الآخرين حتى يستطيعون فهمها وتصنيفها كيفما شاءوا.. لم تستجب يومًا لتلك القوالب «التليفزيونية» التي يحبون أن يجهزوا على فراشاتهم الهاربة بها.. فلن تكون «إرهابية» كما يريدها المصنفون رغم انتمائها وتمسكها وعشقها لدينها.. ولن تكون «بيئة» رغم تواضع حياتها التي يراها عليها «الطبقيون»، ولن تكون رجعية متخلفة ثقافيًّا رغم الذوبان مع كل ألوان «المستورد» من الأفكار والرؤى الذي لم تستجب له كما يراها «المتثقفون».. ما زالت ابتسامتها الحالمة في عالم كارمن تشي بها بين الحين والآخر إلى أن فاجأتها محطتها حيث تصل إلى عالمها من جديد.. حين اخترقها واخترقته مرة أخرى في محاولة للوصول إلى «ميكروباص» ليأخذها إلى بيتها الوقور المتحدي للعشوائية والفوضى.. كانت موسيقى كارمن ما تزال تدق بعنف كخلفية لهذا المشهد العبثي.. بالفعل وجدت تلك المقدمة مناسبة تمامًا لذلك الإيقاع الفوضوي العشوائي الحيواني في كل شيء وكأنها بالفعل في سيرك.. ضرب من ضروب اللعب على الحبال بل القفز من خلال حلقة النار حين تحاول أن تجد لها محلًّا من الإعراب داخل سيارة «ميكروباص»، وأخيرًا بعد عدة محاولات بائسة وجدت ذلك المقعد الذي ألقت بجسدها عليه وكأنها تزود عن صيد ثمين في معركة شرسة.

وما أن استجمعت شتات روحها حتى نفضت عنها كل آثار كارمن وبيسيه. وثقافة تغرد بعيدًا عن كل ما له علاقة بالزمان والمكان.. ومسوح لنماذج تليفزيونية مركبة تعبر عن واقع لا وجود له إلا في أحبار الطباعة ورائحة الكتب وأضواء الندوات.. كان ماردها الشعبي العشوائي قد انطلق من قمقمه أثناء رحلة الصيد التي اقتنصت فيها ذلك المقعد الذي تجلس عليه الآن منتفضة بعد قدر من الصراخ والسباب وما سمحت به اللحظة من كدمات.. وأخيرًا بعد أن استطاعت أن تروضه لتدخله إلى قمقمه مرة أخرى لا تريد أن تخرجه من جديد حين لمحت سائق «الميكروباص» يعلن عن إقلاع رحلته بالضغط على زر «الكاسيت» كالعادة.

لكنها رغم قرارها بالاستسلام له أي كانت المعارك السمعية القادمة وجدت نفسها قد سلمته أذنيها، بل روحها طواعية بارتياح ما وزفرة أطلقت سراحها مع وقع صوت أم كلثوم الغير متوقع في تلك اللحظة المتبلة بكل بهارات الفوضى العصرية.. دقائق من التصالح والوئام منحتها لذاتها ولسائق «الميكروباص» اللا منتمي إلى صورته لديها.. فتغاضت عن بعض الرعونة المعتادة في انطلاقه خلال تلك الشوارع والطرق العبثية.. وسمحت لتحفزها اليومي بالاسترخاء والرضا.. كأنها فترة طويلة أنستها المارد وقمقمه وفوضوية لحظاتها السابقة ورقي لحظاتها المختلسة من واقع لا تنتمي له، وكأنها تكمل تحليقها في عالم آخر جديد لها وحدها حتى

لكأنها لم تعد ترغب في الوصول إلى بيتها قبل أن تنهي أم كلثوم وصلتها على الأطلال.. لكنها رغمًا عما أسرته في نفسها اضطرت أن تقطع حبل استرسالها المستمتع عندما انتبهت مع انتباه أم كلثوم بعدما زال الرحيق.. وأفاقت وكانت لا تود أن تفيق.. عليها أن تنزل الآن وتتجه إلى بيتها الماثل على جانب الطريق.. اتجهت إليه وما زال صدى صوت أم كلثوم يتردد على مسافة منها باتجاه آخر الشارع الطويل وقد تلألأت دمعة على أضوائه تردد معه: وإذا الدنيا كما نعرفها.. وإذا الأحباب كلٌّ في طريق.

■■■

رق الحبيب(*)

ربما لن تعرفها بعد خمس دقائق فقط من الآن.. تلك التي تتصارع ملامحها الجادة على إيقاع ضرباتها المنتظمة المتلاحقة بيد واثقة مصرة وكأنها دربت طويلًا.. صعودًا وهبوطًا في حركة مستمرة لا يوقفها إلا زفرة تحاول أن تطلقها لتلتقط أنفاسها وتعيد استقامة عمودها الفقري، ثم تعاود خلال ثوان ضرباتها من جديد.. تلك الضربات التي تثير بعضًا من ذرات الطحين اللزج فتتوزع على الطاولة وملابسها الرثة وذراعها الملتهب من أثر الضربات التي غطى صوتها المكان فلم تسمع صوت رنة الهاتف المحمول.. لكنها أخيرًا سمعت نداء ابنة أختها عليها ممسكة بالهاتف وهو يردد الجزء الأخير من مقدمة أغنية أم كلثوم الشهيرة رق الحبيب.. لا تدري لماذا ارتجف قلبها مع ارتجافة ملامحها ويديها وهى تشير لابنة أختها بالاقتراب وفتح الهاتف ووضعه على أذنها.

ما زالت خيوط العجين اللزج تتخطل من بين أصابعها وهي تنطق بصوت قادم من زمن بهتت معالمه، وكأنها صورة قديمة بالأبيض والأسود الملوحين بالصفرة من أثر القدم.. حين دفعت أولى كلماتها

(*) أغنية من كلمات: أحمد رامي، ألحان: محمد القصبجي

المرحبة ببطءٍ ثقيل باقي كلماتها.. لم تعد هي التي كانت قبل دقيقة واحدة تدق وتتعارك مع الطحين والماء الممتزجين.. لاتزال ابنة اختها تمسك لها الهاتف المحمول باتجاه أذنها.. وتراقبها بتعجب وانبهار وهي تتكلم بثقة وقوة ولغة مختلفة تمامًا لا تعرفها رغم أن بها بعض كلمات عربية تفهم معناها، لكنها لا تفهم سياقها أما باقي الكلمات فهي فيما بدا لتلك الطفلة كلمات أجنبية تمامًا.. حتى كادت تتشكك وتسأل نفسها من يا ترى تلك المرأة التي تعرف ملامحها وتعرف أنها خالتها لكن تبدو لها وكأنها امرأة تشبهها.

أخذت عينا الطفلة تتبع مسارات العجين على تلك اليد التي ما زالت تحاكي وتشارك صوت خالتها في التعبير.. وأخيرًا انتبهت أنها تنهي المكالمة بوعد باتصال جديد مرة أخرى بعد ساعة من الآن.. رفعت الطفلة الهاتف من فوق أذنها وضغطت على زر فيه، وهي تنظر إلى خالتها التي توقفت قليلًا، وكأنها تسترجع مشهد ما قبل الاتصال.. ثم قالت للصغيرة ألم يجدوا إلا هذا الوقت؟ كانت تضع يدها بتثاقل مرة أخرى في العجين حين كانت تتمتم.. بل إن هذا هو التوقيت الصحيح الذي يتتبعني ويصوبني بمهارة في حالة اللا اختيار و اللا انتظار، وحين نقرر في وعي ما في زمن ما أن نختار.. فعلينا إذًا الانتظار.

استكملت ملحمتها مع الماء والطحين.. وكأنها تعاود حفلة تعذيب في جسد تشبث بفترة هدوء فخارت قواه وهمد وغاب عن الوعي فإذا بها تستفيقه من جديد.. لا تعرف تحديدًا لماذا كل هذا العشق للخبز، ولماذا كل هذا الإصرار على نجاح مهمتها التي مرت بتجارب فاشلة كثيرة في أن يرى حلمها النور؟.. حلم ربما تراه إحدى الفلاحات ساذجًا وتافهًا.. وتراه إحدى الهوانم تعب قلب لا لزوم له.. فكل أنواع الخبز تملأ الأسواق بأشكال وألوان من المخبوزات.. فلماذا ترهق نفسها بهذا الشكل بعد فشل متكرر في تحدٍ عجيب لكي ترى رغيف خبز ترضى عنه بين يديها.. حقيقة لا تعرف سر هذا الشغف بهذا الأمر تحديدًا.. لكنها تعرف أنها تستبشر خيرًا بالخبز، وخاصة لو كان «فلاحي أو بلدي» كما يسمه مجتمعها.

رائحة الخبز ذاتها تشعرها بشيء من الأمان الممزوج بعاطفة لا تستطيع تفسيرها.. اكتشفت ذات مرة أن الرائحة لديها لها ذاكرة ما.. بحنين ما.. ربما يكون ذلك هو سر حبها للخبز أن ذاكراتها ما زالت تحتفظ برائحة العجين الممتزجة برائحة الحطب المشتعل مع رائحة الهواء البارد البكر الذي يحمل همهمات الفلاحين وهمسات الفلاحات بل وصوت نعير البقر والجاموس من بعيد، اختلطت كل عناصر ذلك المشهد المقتنص من يوم ريفي قديم عاشته وهي طفلة لا تكاد تعيه جيدًا وقتها ولم يعد له وجود الآن.. ولكن بقيت تلك الرائحة في ذاكرتها تعاودها بين الحين والآخر.

هي ليست ابنة الريف ولا هي أيضًا ابنة المجتمعات الراقية.. هي ابنة المدينة الإقليمية التي تأرجحت ما بين الريف والحضر، وتعلقت بحبال قاهرة مصر لقربها منها.. لكنها لم تطل فطرة الريف ولا هي طالت أناقة الحضر ومجتمعاته الراقية.. لذلك بقيت في صراع يجذبها أحيانًا نحو المدنية التي أتقنت لغتها وتمثلت بصورتها فتفوقت في فنون الحاسوب وعولمته ولبست أفخر الثياب وارتادت أفخم الأماكن وأشهرها.. وتعلمت الإنجليزية وأتقنتها.. وأصبح لها أدوات فعالة للعلاقات العامة.

هي ابنة عصرها بكل ما تحمل هذه العبارة لكنها في ذات الوقت تجد نفسها كثيرًا ما تود أن تكون على فطرتها وطبيعتها تتحدث دون حساب وترتاد الأسواق البلدية التي تحيط ببيتها في مدينتها الإقليمية الرمادية التصنيف.. وترتدي العباءة السوداء وتفاصل وتفاوض مع هذا وذاك وتعرف أخبار جيرانها وقصص البائعات وأسرهن.. وتخبز الخبز.. بل وكثيرًا ما تمنت أن تقتني الكثير من الكتاكيت والدجاج والبط والأوز، لكن ظروف مساحة بيتها لا تسمح بذلك.. ذلك التناقض يقسمها كثيرًا حتى لا تكاد تعرف نفسها.. لديها جهاز حاسوب تقضي معظم أوقاتها أمامه.. ولديها شغفها بامرأة من زمن ما بمواصفات ما تمنت أن تكونها ذات يوم.. لكنها لا تعرف كيف ستنسق مع شقها الآخر في تبادل الأدوار.. لكن في

كل الأحوال يسيطر عليها حلمها المُلح وهي أن تصنع بيديها رغيف خبز تذكرها رائحته بتلك الرائحة التي تختزنها في ثنايا الحنين لزمن ما لا تعرف متى ستعيشه أو هل ستعيشه أم لا؟.

حين تخرجت كانت فتاة عملية جدًّا رغم أنها تسعى ككل فتاة لأن تكون أسرة وتلتقي نصفها الآخر إلا أنها كانت جادة جدًّا في سعيها نحو تحقيق ذاتها العملية وإثبات كفاءتها التي هي بالفعل حقيقية.. فهي متفوقة في دراستها ومتفوقة في إثبات جهدها وذكائها في التعلم.. ومتفوقة في فنون «الجرافيك» التي تستزيد من دراسة تقنياتها دومًا.. فأصبحت أهلًا لثقة عدة أماكن عملت بها.. كلما أثبتت نجاحها بمكان ما أصبحت مطلوبة أكثر براتب أكبر في مكان آخر وهكذا.. تنقلت بين عدة شركات.. إلى أن حدثت ثورة 25 يناير وحدث معها بعض التوقف والركود في مجالات عدة.. جعلها تنتهز الفرصة لتهمس لنفسها برغبة لم تعلنها ولا تواجه ذاتها بها قط أو تواجه بها أحدًا.

كانت قد تعبت من صراعها اليومي مع المواصلات التي هي ليست بيسيرة أبدًا.. وكما خمد العجين أثناء مكالمتها الهاتفية.. كانت هي قد خمدت أيضًا أثناء فترة الثورة.. أو ربما جذبت شعلة الثورة روحها نحو وجهة أخرى.. وأفكار أخرى.. وشخصية أخرى ظلت كامنة بين ضلوعها في سكون تام لكنها حية تنبض.. فقررت أن تعمل بشكل حر لا تتقيد بوظيفة

ولا وقت أو مكان واحد.. تريد أن تعيش الشخصيتين معًا ولا تترك الفرصة لشخصية منهما أن تتجبر على الأخرى.. عجبتها فكرة الـ «freelance" الآخذة في الانتشار.. وأصبحت تعمل بالطلب لصالحها في الوقت الذي يناسبها وكيفما شاءت.. أو هكذا تصورت في بادئ الأمر.. إلى أن بطئت عجلة العمل شيئًا فشيئًا فتباعدت مساحات الطلب والاستعانة بها شيئًا فشيئًا خاصة مع توقف كثير من الشركات عن العمل.

هي لم تحزن.. لكن الملل تسرب إليها.. وأصبحت تفتقد إحساسًا بأنها تؤدي دورًا واضحًا مستمرًا؛ لذا أصبحت تنتظر باشتياق تلك الاتصالات التي يطلب منها عمل ما.. حتى أنها خصصت لتلك الشركات التي تعمل معها على هاتفها المحمول نغمة أغنية أم كلثوم رق الحبيب.. وكأنها على موعد رومانسي مع العمل تلك الأغنية التي أعيد اكتشافها حين عرض مسلسل كوكب الشرق في أوائل الألفية الجديدة.. فانتشرت من جديد وأحبتها كثيرًا سواء بالتوزيع الموسيقي الحديث أم بنسختها القديمة.. وأصبحت تبتهج كلما سمعت تلك الرنة كأنها تستفيقها وتستفيق فيها إحساسها بأنها مطلوبة وما زال نجاحها يترك أثرًا.. لكن الفترات تباعدت.. وبدأت هي تكتشف ذاتها في رغبات كامنة تطل بين الحين والآخر.. منها رغبتها القوية في صناعة رغيف خبز شهي الشكل والرائحة.

اكتشفت أيضًا أنها تنافس نفسها لا زملاءها في العمل فبث ذلك في نفسها روح طمأنينة راضية.. جعلها كمن تسترخي في فراش وثير.. لم تعد تنزعج من مرور الوقت كما كانت.. ولم تتعصب على أشياء تافهة كما كانت.. شيء من خدر ناعم أصابها فأصبحت تتابع برامج المرأة ومواقع الطهي والتجميل والأشغال الفنية على الشبكة العنكبوتية.. أصبحت تتفنن كل يوم في اكتشاف شيء جديد تصنعه بنفسها.. بالفعل وجدت أصنافًا عديدة من الخبز، ذلك الحلم الذي كانت تتمنى تحقيقه منذ زمن.. لكنها لم ترض عن أي من التجارب السابقة.. لا تزال هي بشخصيتها المصرة المتحدية الساعية للنجاح كامنة فيها أيضًا.

لم تيأس من فشل المرات السابقة وقررت أن تكرر التجربة.. كلما سمح لها مزاجها ورغبتها حاولت من جديد.. والآن هي ما زالت تحاول وما زالت تصارع مزيج الطحين والماء.. وتسدد له عدة ضربات متلاحقة.. ثم أخيرًا قسمته ووزعته قطعًا صغيرة في صاج وتركته ليختمر.. في تلك الأثناء لا تعرف لمَ لم تتصل مرة أخرى بتلك الشركة التي اتصلت بها أثناء معركة العجين كما وعدتهم؟.. وجدت في نفسها فتورًا ولأول مرة في أن تتواصل معهم وتقرر لهم موعدًا تذهب فيه إليهم وتقدم لهم ما طلبوه منها.. قررت أن تنتظر لحين أن تنتهي تمامًا من معركة الخبز وترى نتيجته.. وكأنها على موعد مع حبيب انتظرته طويلًا.

كانت تترقب في فرح طفولي مشوب بالقلق إطلالته.. وأخيرًا هل هلاله.. سبقته رائحته.. إلى حد قريب جدًّا تشبه تلك الرائحة التي احتفظ حنينها بها.. وأخيرًا ظهر لها وجه القمر.. هكذا دللته وهي ترفع الصاج من الفرن وكأنها تهدهده.. سعيدة جدًّا بتلك الرائحة وكأنها جلبت لها ذلك الأمان المختزن في الذاكرة.. وشكله أيضًا بشرها بالخير.. أعطى لها رسالة تؤكد نجاحها بنسبة لا بأس بها.. كان قلبها يرقص طربًا وفرحًا.. حتى أنها تعجبت لسذاجتها وفرحها الطفولي الذي لم تعتده في نفسها.. حين عاودت نغمات رق الحبيب مرة أخرى الاتصال بها كانت هي تجلس على أريكتها في حجرة المعيشة وأمامها صينية عليها رغيفان خبز من صنع يديها وفنجان قهوة امتزجت رائحته الكلاسيكية مع رائحة الخبز التي اشتهت حنينها دومًا.. في تلك اللحظة قررت أن تستمتع برائحة الخبز وبعض لقيمات منه مع رشفات القهوة وصوت أم كلثوم وهي تكمل وصالها مع ذلك الحبيب الذي رق.

■ ■ ■

نوستالجيا(*)

اللي فات وياك يا روحي بـ أعود إليه..

واللي عشته معاك رجعت أعيش عليه

كانت تتحاشى النظر إلى ذاتها متعددة الوجوه وكأنها وجه لامرأة صورها بيكاسو في الأربعينيات.. تمر كل يوم أمام هذه المرآة بتجاهل متعمد.. لا تريد أن تفجر صراعًا جديدًا معها، كما لا تريد أن تكبح غيظها المحموم حين تتذكر كلمات أمها: لما أموت ابقي غيري اللي انتي عايزاه. ليست مرآة «التسريحة» وحدها من تحتاج للتغيير أو الإحالة للمعاش.. بل كل ركن في البيت وكل مفرادت التعامل الإنساني في حياتهما اليومية.. هي وأمها.. تعيشان في ماضٍ ذهب وترك عطره وتتطلعان لمستقبل لا يأتي.. التفتت إليها وهي نائمة.. يفزعها الصمت حين لا تسمع غطيطها أو أثرًا لتنفسها.. تنتظر حتى تعود روحها لها مع زفرات أمها من جديد.. في أحد الوجوه كانت تقتفي أثر الزمن على تضاريس وجهها.

(*) مقطع من أغنية فكروني كلمات: عبد الوهاب محمد، وألحان: محمد عبد الوهاب

لكن عينيها تخطت تلك التضاريس لتفتش وراءه عن مكانها.. في إحدى تجازيع المرآة كان سريرها خاويًا.. باردًا.. لم يفلح الانتظار في استرداد روحها العائدة مع زفرات تنفسها مرة أخرى.. لكنها لم تفزع.. ولم تتعصب.. ولن تلملم شتات غيظها المكظوم منذ زمن وهي تتذكر مقولتها: لما أموت ابقي غيرى اللي انتي عايزاه.

■■■

سوف تلهو بنا الحياة.. وتسخر(*)

يا لسخف المفاجأة.. أيعقل أن تكون النهاية بمثل تلك المفاجأة الفجة؟ بل يا لسخف تساؤلك الحقير.. أيعقل؟ ماذا تعني أمارات العقل ومشتقاته وعلامات تعجبه في أمر قدري؟ كم اتهمتك ويبدو أن اتهاماتي في محلها، بأنك لست مؤمنًا بما يكفي بل ما قصدته تحديدًا أنك لست مؤمنًا إلا بقانون الدرهم والدينار والريال والدولار.. نعم يبدو أنك بالفعل لم تصادق ولم تصدق مع غيرهم.. لا تتصنع علامات الوهن والضعف والألم تحت وقع سياطي.. احمد ربك أنني ما زلت أعيش وأتنفس بين جنبات نفسك التي حقرتها يومًا بعد يوم حتى وصل بك الحال أن تتساءل الآن بكلمة: «أيعقل؟».. العقل.. ذلك الشيء الذي أتعبك عبر سنوات زادت عن نصف عمرك.. أو هكذا تصورت.. فأي عقل هذا الذي يسمح لك بأن تضرب قوانين صارمة على ذاتك اعتبرتها حسابات عقلية دقيقة لا يكتنفها ذرة من أخطاء البشر.. أو فلنقل بشكل دقيق من مشيئة القدر.. أي عقل خدعك بأن أحلامك أوامر سينفذها قدرك فقط لأنك لديك الإصرار عليها ودرستها بدقة وفي سبيلها قيدت روحك بألف قيد؟ ويا ليتها كانت تستحق في الرخص أحلامك تلك.

(*) مقطع من قصيدة: هذه ليلتي. شعر: جورج جرداق، ألحان: محمد عبد الوهاب

بدأتها بسذاجة شاب في العشرين من عمره على وشك إتمام دراسته الجامعية.. من أجل تلك الأحلام رفضت أن تتجاوب مع قلبك وإشارات نبضه وبعض شفراته الخاصة التي وأدتها في نفسك سريعًا كي لا ترتبط بأي فتاة في ذلك الوقت.. فسريعًا ما حسبتها بعقلك وبحسابات رقمية فقط، وبهيمنة وإرادة صلبة قد لا يحسدك عليها أصحاب القلوب الحية.. مثلما فعلت ذلك أيضًا مع والديك حينما اقتنصت فرصة أنك وحيدهما فشكرتهما على أنهما سهَّلا لك الخروج دون الالتزام بشرط أداء الخدمة العسكرية والالتزام بهما أيضًا وتركتهما ورحلت دون أن تلتفت لشيء.. وبالطبع قدمت آلاف المبررات التي تبرع في صياغتها بل في ابتكارها.. كانت كل أحلامك تتلخص في رقم.. رقم يوفر لك صورة معينة اصطنعتها في مخيلتك.. تحاكي الأحلام السينمائية تارة والأحلام على أرض الواقع.. لكنه الواقع البعيد عنك تارة أخرى.

صورة استجمعتها من بذور غرستها فيك وفي مجتمعك واقعية ارتدت إلى أشد العصور جاهلية لكنها تنكرت في بريق الحداثة والعصرية.. نعم.. كانت واقعيتك بها كثير من الصدق والألم.. نعم.. هناك جيل بأكمله بل أجيال ذهبت أرواحها ولم تعد.. تاهت وهي تبحث عن أمل.. عن ذلك الضوء المزعوم في نهاية النفق.. أجيال ضائعة مهزومة تواري انكسارها خجلًا أمام هيمنة براجماتية فتحت لها كل الأبواب وهي تقرع طبول النصر.. لا شك أن خيباتك كانت متلاحقة بما يكفي لأن تكفر بكل مبادئك

التي كانت.. لا شك أنك صدمت في كثيرين، وكثير من أفكار دست في عقلك عبر قنوات التعليم وقنوات الإعلام التي طبلت وتراقصت على إيقاعات الاشتراكية من قبل.. كما تتراقص على إيقاعات الرأسمالية الآن.

أقنعوك يومًا أنهم قضوا على الإقطاع وسيطرة رأس المال كما هى الأكليشيهات التي حفظتها ورددتها واختبرت فيها في سنوات الدراسة.. كما أقنعوك بأنهم غيروا وجه الحياة ونشروا العدل والرخاء.. ببضعة فدادين اقتسموها أو بالأصح اقتنصوها من الكبار القدامى ليقنعونك بأنهم يمنحوها لك ولأمثالك البائسين.. ثم اكتشفت أنها مجرد فتات تناثرت وهي في طريقها إلى الكبار الجدد.. فلكل عصر كباره.. وذات يوم في لحظة واقعية جدًّا أو في لحظة جنون قررت أن تكون واحدًا من هؤلاء الكبار.. لكن يا لخيبتك وحسرتك حين فهمت أخيرًا أن هؤلاء الكبار لم يصنعهم جهد «حميري» كالذي فرضته على نفسك.. حين تصورت أنك ستحقق حلمك الرقمي ومزاحمتك للكبار الجدد بمزيد من الجهد في العمل.. ومزيد من التقتير ومزيد من القيود والحرمان.. واللا تسيب في أوجه الصرف خاصة فيما لا داعي له.. فهرعت تعلق لافتات تحمل جملتك الأثيرة: «لا داعي له» على كثير وكثير مما راودتك عنه نفسك.. فإذا بك تضعها أيضًا على حضور جنازة والدك وسفراتك في الأجازات.. مكالمات والدتك اليومية التي أصبحت أسبوعية.. ثم شهرية.. سنوات أكثر من نصف عمرك مرت بك الآن كلحظة وأنت تتابع إعلانات الجرائد.

فمن يريد أن يدرس بشكل دقيق ملامح بلد ما عليه أن يتتبع إعلانات جرائدها.. سيرى فيها تعاريج الزمن التي زحفت عليها شيئًا فشيئًا.. بل ربما سيرى تعاريج الزمن على أحلامه.. كنت تتابع في قلق بالغ ما آلت إليه شيخوخة أرقامك التي سخرت منها كل الإعلانات.. كل شيء.. صغيرًا كان أم كبيرًا كنت تضاهيه برقمك الذي ظننت أنك ستحقق به كل الأحلام.. كنت تتصور أن كل الإعلانات التي كانت يومًا ما تتفنن في تكديرك والإنقاص من قدرك ستجيء الآن إليك مهرولة تفتح لك ذراعيها أو تنحني أمامك.. بدأتها بإعلانات الفيلات.. ثم إعلانات الشقق.. في الأحياء الراقية.. ثم الأحياء المتوسطة الرقي.. ثم الأحياء التي هربت منها.. إعلانات السيارات.. إعلانات الأجهزة الكهربائية والحاسوب والهواتف النقالة.. إعلانات المقتنيات والمشروعات.. المدارس.. حتى إعلانات المطاعم وقاعات الأفراح.. كلها سخرت منك.. ومن رقمك الحلم الذي دفعت فيه عمرك وإنسانيتك.

كنت تتابع في شغف محبط متصفحًا إعلانات الجرائد لتحقق حلمك بعد أن قررت أخيرًا أن تقطع على نفسك طريق الدوران في ساقية الزمن.. أو بعبارة أصدق بعد أن قطعوا هم عليك الطريق ولم تستمت أنت في وصله ككل مرة.. فقد استجبت لإنذارات المشيب وتساؤلات ألحت عليك في الفترة الأخيرة تقول: ثم ماذا بعد؟.. حينها قررت العودة بشكل نهائي..

كان القرار صعبًا.. لكنك أيقنت أنه حتمي وأنه قد آن الأوان لأن تعيش قبل أن تطوي صفحة النهاية.. تخيلت يومها أنك عائد إلى ذلك الأمان الذي صنعته بتعبك وجهدك وحرمانك.. الأمان الذي اغتربت فيه عن إنسانيتك.. صدمتك كل الأرقام وسخرت من رقمك.. وأخذت تفكر وتعمل آلة عقلك الحاسبة مرة أخرى حينها لم تدر ما الذي يحدث.. روحك تنسحب وتوازنك يسرق منك.

شعور شديد بالغثيان و «الكركبة» المعوية تداهمك على وقع «كركبة» واضحة أحس بها من حولك على متن الطائرة العائدة بحلمك إلى أرض اللا حلم.. لينتبه الجميع بعد دقائق طويلة جدًّا إلى بيان قائد الطائرة يفيد بأن هناك هبوطًا اضطراريًّا سيحدث في بلد غير بلد الأحلام المنقوضة لوجود خلل ما بالطائرة.. وها أنت الآن تنتظر إعلانًا جديدًا عن رحلة جديدة إلى أرض الأحلام المتبخرة على نار أرقام إعلانات جرائدها.. ساعات من اللا حلم و اللا إرادة قضيتها في أرض أخرى تنتظر نداءً يعيد ترتيب نفسك.. ها قد أعلنت مذيعة المطار عن استكمال الرحلة.

وأخيرًا عدت للحياة من جديد بيقين جديد على متن طائرة مسافرة إلى حلم جديد.. لكنك أيضًا أمسكت بتلك الجرائد اللعينة لتتصفحها مرة أخرى.. ولكن بشكل جديد أيضًا فقد افتتحها من آخر صفحة.. صفحة الوفيات.. لتسخر أنت هذه المرة وأنت تسأل رقمك: ترى كم دفع في هذا

الإعلان الذي أعطى صفحة كاملة بصورة كبيرة للمرحوم وبنط عريض جدًّا.. كانت ضحكتك تزلزلك وتلطمك عدة مرات أثناء هروب دمعة متلألئة باسمة من عينك، وأنت تتمتم بالحمد لله على هبوط الطائرة أخيرًا بسلام على أرض الوطن اللا رقمي.

■■■

ألف ليلة وليلة(*)

حُيرت وحُير معي كثيرون ممن يعرفونني في فهم ملامح نفسي.. هل أنا باردة أم سريعة الاشتعال؟ أم مزيج من الاثنين؟، بل أحيانًا أوصف أنني بلا ملامح.. وهذا ما أرجحه.. فأنا بالفعل لا أعرفني ولا أستطيع توقع ما هي تلك المشاعر التي سأواجه بها أي موقف.. الآن فقط اكتشفت في نفسي ما لم أعلم بوجوده وما لم أتوقعه.. صفعة على وجه ابنتي الصغيرة بيدي أنا.. أنا تلك الأم النيئة كما تصفني أمي.. ولكني الآن يا أمي في تلك اللحظة، في حالة شواء، تكاد سيارتي المسرعة تشتعل بي ويتصاعد الدخان الكثيف منها ليملأ الطريق الذي أقود سيارتي عليه الآن بجنون.. بجواري تلك الشيطانة المصفوعة وقد ألجمها صراخي الهستيري المحموم الذي أسمع كل من كان بجوارنا في وقفة حوصرنا فيها لساعتين، اختلط فيها مزيج من مؤثرات الرعب.. صراخ.. هتاف.. طلقات نارية.. قنابل غاز خانقة.. صراخ عربات البوليس وزمجرة المدرعات.. ساعتان كدت فيهما أن أختنق وابنتي.. أما ابنتي تلك البريئة الصغيرة ذات العشر سنوات فلم يكن يعنيها من كل تلك

(*) أغنية من تأليف: مرسي جميل عزيز. وألحان: بليغ حمدي

الأهوال سوى تأخرنا عن موعد برنامجها المفضل المسمى بـ «عرب جوت تالنت» وقد تواصت وصديقاتها وصديقها نعم صديقها الذي أجبرت على الاعتراف به بالتصويت لـ«أم كلثوم» الألفية الثانية الصغيرة «ياسمينة» التي تشجعها من أجل مصر كما تقول!.. كانت تصرخ في: لقد قلت لكِ لا داعي للخروج.. أنتِ السبب.. ضيعتي عليّ البرنامج.. لا أعرف كيف امتدت يدي لتصفعها سريعًا هكذا؟

كان بركانًا يتصاعد بداخلي على أثر الأصوات الهادرة وطلقات الرصاص ودموعي المنهمرة والسعال المستمر المختنق على إثر قنابل الغاز.. كنت أحاول بشتى الطرق أن أتقهقر للخلف وأعود من حيث جئت.. ولكن بالطبع لم يكن خلفي إلا طابور طويل من السيارات المختنقة التي تحاول التقهقر أيضًا.. حاولت أن أتذاكي وأنحرف يمينًا ربما أجد مساحة خالية على جانب الطريق أستطيع من خلالها الرجوع.

ارتبكت على صوت صراخها وإلحاحها المزعج.. فصفعتها بكل ما اختزنته السنين من ألم وما فجرته الساعتان الماضيتان من غضب.. أنا أيضًا لم أكن أريد الخروج.. لا أريد أن أرى أمي ولا أي كائن حيّ على ظهر هذا الكوكب.. كنت أحاول الهرب لأي شيء وأي سبب.. إلحاح أمي أيضًا يكبلني دومًا.. لا أستطيع أن أتخذ موقفًا حازمًا إزاءه.. منذ طفولتي وأنا أسيرة صراخها وأوامرها.. والآن أصبحت أسيرة موعدها الأسبوعي.. لا أستطيع أن أتهرب منه.. نعم أحاول دومًا

الهرب والفكاك من تأثيرها السلبي علي.. لم أعد أتحمل تأنيبها لي ومعايراتها التي تسمها نصائح.. لم أعد أتقبل جلدها المؤلم لي.. لم أعد أنا تلك الساذجة التي تهرع إلى أمها كي تلقي بهمومها بين يديها.. أصبحت كل تفاصيل حديثي معها خطوط عريضة من الأخبار العائلية العادية جدًّا عن أب وأبنائه.. وزوجته الصنم التي هي أنا.. تفاصيل تحكي الصورة المثالية التي يجب أن تكون.. بل هي التي كائنة بالفعل تجاه الأبناء وربما تزيد عن الحد في التدليل وترك الحبل على الغارب.. أما أنا فغير كائنة في حياته مثلما لم يعد هو كائن في حياتي.. كم عذبتني نصائحك المتهمة لي بالتقصير والإهمال.. حتى أصبحت منافسة لابنتي الكبرى ذات العشرين سنة.. أقتفي أثرها في كل ما تلبسه وتستخدمه من أدوات تجميل ومظاهر مجنونة تناسب عمرها وعمر صديقاتها فأصبحت تخجل مني أمامهن.. أصبحت مفتش تحقيقات ونائبًا عامًّا ومخبرًا سريًّا، أقتفى أثر زوجي أوّلًا بأول في كل لحظة وكل سكنة.. حاولت إثارته بكل أسباب الغواية التي عرفتها والتي لم أكن أعرفها.. ثم أدركت أنه لم يكن يرى في إلا أنثاه المباحة داخل إطاره المباح.. والرجال يا أمي لا يسبر غور غرورهم إلا صولاتهم خارج إطار اللا مباح.. سئمت.. سئمت يا أمي من تمثيل دور الغانية ودور المخبر السري معًا.

مرات حاولت استعاطفه، ومرات حاولت التمرد وإعلان غضبي عنده.. وأخيرًا حاولت إثارة غيرته بما يصلح لسيناريو فيلم هابطٍ من أرشيف موروثك السينمائي الذي كان ينعته زوجي بـ «حركات أمك البلدي»..

لم أخبرك.. ليس لأنني لم أرد أن أجرح مشاعرك.. بل لأنني اكتفيت من نصائحك وجلدك المستمر لي الذي لن يخمد حتى بذكر هذه العبارة لكِ.. أشعر أنني حرف شذَّ عن جملة في سياق سيرتك الذاتية.

لم أكن أنا تلك الغانية التي حاولت استمالة زوجها أو شاب في عمر ابنها كيدًا لزوجها.. لم أستطع تمثيل ذلك الدور باقتدار وأتعايش معه.. وإن استطعت.. فلم أجنِ منه سوى خيبة تلو خيبة.. أعرف أنه يخونني يوميًّا مع أكثر من امرأة.. ولم أعد أتألم أو أشعر بالهزيمة أو الانكسار، بل بالعكس نسيت تمامًا أنني زوجة له.. ووجدتني اليوم أيضًا أرفض أن يساومني طفل آخر على مشاعري ويتلاعب بي من أجل لحظة انتصار أنثوي مزيف.

سئمت حديثك عن صولاتك وجولاتك في عالم الإغواء.. وحكاياتك عن ملاحمك في غزو القلوب وكيف أوقعتي أبي في شراكك وكيف أبقيته رهن أسرك عمر حياتكما معًا.. لماذا لم تذكري لي إخفاقاتكِ أيضًا يا أمي.. ربما تعاطفت معكِ أو اقتربتِ منك أكثر.. أعلم عن مشاعر أبي تجاهك ما لم تعلميه، وأعرف عن خيباتك ما لم تذكريه.. لن أكون مثلك.. لن أسمي هزيمتي بغير اسمها.. ولن أرقص على الألم لأثبت لمن لا يهمه الأمر أني سعيدة.. لن أتبع وصفاتك السحرية في التزييف والتجمل الكاذب ومواجهة لم تقفوها يومًا أمام أنفسكم.. أي مجتمع ذلك الذي يرقص ويغني على ألحان هزائمه وأنين أبنائه المكبلين في سلاسلهم؟ كم من

السنوات والشهور والأيام ارتاح هذا المجتمع فيها بين يد الغفلة والخدر؟.

كم من الليالي تلاشت مع دخان بخور السهد والهجر والصد والهوى؟.. شعوب روضها صوت «الست» كما روضت شهرزاد شهريار.. حتى استعذبت الألم واستكانت، للذل ورضيت بالجحود والنكران وسفحت مشاعرها رخيصة باسم الهوى والحب! ورفعت كؤوس الثمالة نخب انتصار زائف.. ألم أقل لكم أني لا أعرف ملامح نفسي ولا أتوقع شيئًا عن مشاعري وأفكاري؟.. هذه هي أفكاري التي لم ألتقيها يومًا قبل تلك اللحظة التي أنهب فيها الطريق نحو بيت أمي نهبًا الآن.. ما زالت ابنتي تنظر لي بتعجب.. رغم شحذها لدمعاتها المتأوهة وجدت كفها الصغير يقترب في حذر مني لتربت على كتفي حين كانت دموعي تتواصل مع أنين أحاول أن أكتمه.. وأخيرًا حين وصلنا احتضنتها على باب البيت.. صعدنا سريعًا لتلحق ما تبقى من حلقة برنامجها المفضل.. وطمأنتها أمي أن ياسمينة لم تغنِ بعد.. كانت تشعر بالبهجة وهي تنظر إلي وإلى أمي التي استحضرت ذكرياتها على الغناء الكلثومي لـ ياسمينا الصغيرة.

■ ■ ■

إسفنج(*)

أريد أن أعيش أو أموت كالرجال

نعم يا سيدي.. أنت مختطف.. ولكن لا تنزعج فأنا غير عنيف كما تعلم وليس في نيتي أن أؤذيك. لا، لم يرد في ذهني قط أي شر تجاهك.. بالعكس أنا ممتن لك وأعترف بفضلك عليّ فقد وضعت يدي على كثير من الأمور التي غابت عني أو بالأحرى لم ألتفت إليها من قبل رغم معايشتي لها.. أعنتني على أن أرى صورة حياتي بوضوح أكثر، رغم عدم تمكني من إصلاح عيوبها.. ولم أفلح أيضًا في التكيف معها كما نصحتني.. الواقع يا سيدي أنني أشعر بقدر كبير من الظلم.

لم تفلح تلك الرؤية الواضحة التي ساعدتني في الحصول عليها أن تزيل تلك الغصة من نفسي بل على العكس، زادتني إحساسًا بالغبن وعمقت في نفسي مرارة تلك الغصة.. لا عليك من هذه المرأة المذعورة التي تجلس بالمقعد الخلفي.. فهي دومًا مذعورة حتى في أصفى لحظات حياتنا معًا.. نعم هي زوجتي.. لن تتخيل مدى إعجابها بك. نعم، بل هي

(*) مقطع من قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية» كلمات: نزار قباني وألحان: محمد عبد الوهاب

من نصحتني بالتعامل معك.. كانت تتابعك دومًا على شاشات الفضائيات أينما حللت.. تقتني كل مؤلفاتك.. تكاد أن تحفظها عن ظهر قلب.

كل الكلمات والعبارات والحكايات والمصطلحات.. كل الشخصيات.. كل الحالات.. كل النظريات والتراكيب النفسية والعصبية أصبحت مأرشفة في تلافيف مخها الرقيق.. أحيانًا أشعر أنها قادرة على منافستك بقوة.. لديها مقدرة حقيقية على تشريح النفس والغوص في أغوارها.. ولديها القدرة على تقمص روح الطبيب النفسي والمحقق في آن. بل إنها تفوقت وتغلبت على روحيهما معًا وأصبحت أشد استحوذًا بل استبدادًا في اكتشاف ما خفي من أسرار لم تخلق بعد.. لا تنزعج ولا تتأثر لحالها، ولا تظن أن دموعها وأنينها المكتوم نتيجة لعنف ما مارسته عليها.. كل ما في الأمر أنني لم أصارحها بوجهتنا حين طلبت منها على غير عادتي أن تأتي معي.

حاولت أن تستفسر وتوقفت لتفهم لكني دفعتها دفعًا للخروج معي.. حتى أنها نبهتني وأنا أجذبها ناحية المصعد أنها بملابس البيت.. ربما شعرت أنني أمر بحالة غير طبيعية.. حالة من حالات الجنون المؤقت التي قرأت عنها في كتبك ومؤلفاتك.. تصورت مثلما تتصور أنت الآن أنني أضمر لها شرًّا أو عنفًا، بالله عليك يا دكتور، هل رأيت على خلال عامين كنت فيهما حالة طبية لديك أي عنف؟ هل «قفشتني» في أي لحظة جنون خلال تلك

الفترة، كلاكما تعرفان أني مسالم جدًّا.. هادئ جدًّا حتى نوبات الاكتئاب الحادة التي مررت بها سابقًا تخلصت منها بفضل الله وبفضلك وباعترافك أنت شخصيًّا، وكما قلت لي أكثر من مرة أن تلك النوبات ذهبت إلى غير رجعة ولله الحمد. فلماذا القلق.. هه.. لماذا القلق يا طبيب القلق، ريلاكس، خذ نفسًا عميقًا.. ولا تسمح لخيالك بالشطط في أجواء سيئة الظن.. وأنتِ يا امرأة.. كفي عن ذلك الأنين المكتوم، ابتسمي.. ألم تنصحيني دومًا بالابتسام فوق كل الآلام؟ ألم تقولي لي دومًا أنني المسئول عن ضبط إيقاع انفعالاتي وجهاز استقبالي لكل الأمور خارج نطاق الروح والذات.

ها أنذا أمامك إنسان مسيطر فاعل متحكم في أدائي الانفعالي كما تسمونه.. أنا الآن في أفضل حالاتي على الإطلاق، أشعر بقدر كبير من النشوى والبهجة والإحساس بالانتصار، لا. لا تظنَّا أني فرح بانزعاجكما.. أو تلك الحالة من الهلع الواضح عليكما، بل على العكس أريد أن تطمئنا وتهدءا حتى أستطيع أن أبث إليكما مشاعري بوضوح.. وأحكي لكما عما لم أستطع أن أبوح به أو أشرحه طوال تلك المدة.. لم أكن أعرف تمامًا لماذا هذا الشعور الدفين بالظلم، لماذا أشعر بقدر كبير من الإحساس بالاضطهاد؟ لم أستطع أن أبلور أفكاري بشكل واضح نقي خالص من شوائب التشوش والضعف والعواطف السلبية التي يراها الناس نوعًا من العبط.

لم أستطع أن أهزم حنيني وارتباطي بشخصيات أحبها حقًّا. امتزجت كل الأفكار والمشاعر، ولم أستطع أن أستخلص منها خيوط الألم المتشابكة في كتل عُقَدية لا أعرف أولها من آخرها.. الآن استطعت، وصلت إلى تلك النقطة الموجعة.. واستطعت أن أقبض عليها في شجاعة مذهلة لم أعتدها في نفسي وقررت في تلك اللحظة أن أستأصلها وأطلعكما على هذه الجراحة، لا تخافا لن آخذ من وقتكما الكثير.. هي دقائق سنقضيها معًا في مكان عبقري.. المكان الوحيد الذي يجتمع فيه الماضي والحاضر والمستقبل.. الواقع والغيب معًا.. ها نحن قد وصلنا لا تنزعجا. آسف جدًّا إذا لم ينشرح قلبكما لهذا المكان وآسف جدًّا لتلك الخشونة الاضطرارية التي أتعامل معك بها يا سيدي الطبيب.. والله لا أقصد عنفًا.. فقط أمسك بهذا «المسدس» لإحكام السيطرة على المشهد وكأنني مخرجٌ سينمائيٌّ يريد أن يحصل على رؤية سينمائية كاملة كما اختزنتها مخيلته.. تفضل.. تفضل.. وأرجوك أن تقبل اعتذاري.. وأنتِ يا شريكة حياتي بل يا حياتي كلها.. سامحيني على هذه اللحظات من «الأكشن» الذي طالما أحببته وتابعته في شغف موصول طيلة حياتنا معًا.. لماذا أنت صامت يا سيدي؟ لماذا لم تنطق بكلمة منذ صارحتك بأنك رهينتي.. لا.. لا أريد استخدام كلمة رهينة، فأنا لا أطالب بشيء مقابل اختطافك.. بل أنني لا أستطيع أن أصف اصطحابي لك الآن بأنه اختطاف بشكل كامل، ربما لأني كنت أعرف أنك سترفض

لو طلبت منك هذا الطلب، وأعرف أن زوجتي العزيزة ستفتح لي تحقيقًا رهيبًا وربما أجد نفسي معتقلًا بأمرها إذا ما صارحتها بما أريد.. ولكي لا أثقل عليكما ولا أطيل فترة اختطافكما.. أقصد استضافتكما في مقابر العائلة سأدخل في الموضوع مباشرة.. إنني أشعر بقدر كبير من الغبن، أحاول الآن تشاركونني إياه.. أحاول أن أدخلكما معي الآن ذات القفص الذي أقف فيه متهمًا منذ سنتين أو أكثر، بالتأكيد ستقولون لي الكلمة المعتادة بأن المريض لا يرى نفسه مريضًا أبدًا.. لكنني بالفعل أعرف أنني لست مريضًا نفسيًّا.

إنني أعرف تمامًا لماذا انسحبت من حياتكم، لماذا أبتعد وأفضل الوحدة عن التعامل معكم؟ تسمونه اكتئابًا وأنا أراه غير ذلك.. أتعرفون لماذا أتيت بكما إلى هنا؟ لأنني أسعى دومًا لأن أحق الحق. فكيف لا أحقه لنفسي.. لقد رأيت أنكما لستما الوحيدين اللذين أود أن أدخلهما معي قفص الاتهام، فهناك غيركما، إنه ميراث كبير.. ميراث امتصته نفسي كقطعة إسفنج، وأنا اليوم هنا معكم لأعلن أمامكم أنني لن أكون قطعة إسفنج بعد اليوم، ثم إن تلك القطعة من الإسفنج آن لها أن تفرغ ما امتصته طيلة كل هذه السنوات التي مضت. ما ذنبي أن يصاحبني القلق والتوتر طيلة عمري.

زخات من صرخاتها كانت تخترقني منذ أن وعت عيناي على الحياة، كانت نفسي ترتعد دون سبب واضح. كنت أتفزز كلما سمعت وقع أقدامها لأني أعرف أنها ستوبخني لأي سبب، كنت أحبها وأسعى لرضاها حتى

آخر لحظة في عمرها منذ عامين فقط.. كانت بالنسبة لي السند الأكثر دعمًا، لديها من العطاء أنهار، لكنها لم تكن تعرف كيف تقدمه، لم أذكر يومًا أنها احتضنتني، لم تكن تعرف كيف تهدهد صوتها وتهدهد نفسي القلقة معه، كانت عاصفة من المزاج السيئ رغم طيبتها الشديدة، ربما كانت تفتقد المساندة من أبي فقد ظلت أمي هي السند وهي الداعم.. لم تعرف يومًا أن تأخذ، فقد دربتها الأيام على أن تعطي بغير رد.. لكن العطاء لديها كان عمليًّا فقط، لم تعرف ما معنى العاطفة لأنها لم تمتصها.

هي أيضًا مثلي ومثل كل البشر قطع من الإسفنج.. ولم يوفق أبي في احتوائها لأنه كان يتصور مثلي أنها لا تحبه، هو أيضا تربى على إحساس الشعور بالذنب، فقد ربته شقيقته الكبرى، عمتي التي نقف أمام قبرها الآن تحديدًا، كانت كإسفنجة لم تتشرب الدلال الذي يتسرب لأي أنثى مع بدايات المراهقة ظلت تواعد الجمال ولا يستجيب لها، كانت تلمح جفاف منابعه لديها في عيون الآخرين، عاشت وحيدة بين أبناء ليسوا أبناءها، كانوا إخوتها وقد وظفها القدر الذي حرمهم الأب والأم في الوظيفتين معًا. هي أيضًا لم تتعلم كيف تكون أمًّا أو أبًا أو حتى أنثى تمثل دور الأخت، كما افتقرت للجمال افتقرت للذكاء العاطفي.

كانت تمن على إخوتها الذي كان والدي أصغرهم، مع كل همسة مع كل لمسة مع كل قطعة خبز تدسها في فمه كانت تدعو على ذلك الزمن الذي جعل منها خادمة لإخوتها.. وذلك الفقر في الملامح وفي قلوب

البشر الذي أنكر عليها حاجتها لرجل وبيت وأولاد من رحمها لا من رحم غيرها حتى لو كانت أمها. كبر أبي وهو يتصور أنه لا يحق له أبسط ألوان الحياة، كنت أشعر أحيانًا أنه يحاسب ذاته على الشبع والاكتفاء، بل على النوم قرير العين، وعلى الابتسامة وليس الضحك فقط.

كبرت أنا أيضًا وأنا أشعر بالرضا الحذر، أخشى أن تتمدد أحلامي رغمًا عني.. تطلعاتي كانت تقف على أطراف أصابعها لا يمكن لها الاستقرار.. كنت أتعامل معها كأنها أسلاك كهربائية عارية.. كانت هناك هوة سحيقة بين تطلعاتي وتطلعات تلك المرأة التي تقف مذعورة أمامك يا سيدي، حقيقة أنا لم أحلم بالزواج من مثلها، لكن القدر كافأني بها، كانت جميلة رقيقة من عائلة طيبة راقية. شفع لي عند عائلتها أنني فرع ضعيف ممتد من عائلة عريقة لديها ميراث وافر من المال والأصل الطيب، لكنها هي أيضًا كان لديها تصور لم أعرف من أين جاءت به بأنها مسؤولة عني وليس العكس، كانت تحاول أن تعلمني كيف أتكلم، ما الذي يجب أن أقوله أمام صديقاتها وما لا يجب عليّ قوله. بل ما الذي أقوله أمام ابنتي وما الذي لا يجب. ما هو المسموح أن أعلمه لها وما هو غير المسموح، لا بأس فهذا أمر ربما تتشارك فيه معي، لكن هل كان عليها أن تقرر ما الذي على أن أشاهده في التليفزيون وما الذي لا يجب أن أشاهده؟ أو ما هي الكيفية التي يجب أن أتعامل بها مع زملائي في العمل؟ أحيانًا كانت تتصل بي لتذكرني بألا أتعصب لأمر

فلان أو فلانة.. خذ حذرك يا حبيبي من صديقك فلان، لا تتساهل معه إلى هذا الحد؟ هل أكلت شيئًا في منتصف اليوم؟ لماذا لم تتصل بي لتخبرني أنك وصلت؟ هل رأيت الفيديو الذي «شيرته» لك على «الواتس» إذًا لماذا لم تعلق عليه؟ ألم يعجبك؟ أرأيت الفيديو الخاص بفوائد النوم المبكر.. أعجبك؟ إذًا ليتك تنفذ، وهكذا.

كنت أشعر أنني مطارد وأن هناك ذلك «الأخ الكبير» الذي يراقبني، بدأت حياتنا معًا وأنا كتاب مفتوح يحكي لها كل صغيرة وكبيرة وانتهت أو انتهيت أنا بأنني كتاب نزعت صفحاته وأُحرقت حتى لا يتطلع إليه أحد أو هي تحديدًا.. لا تنظري إليّ هكذا. أعرف أن لديكِ قدر كبير من الدفاع عن ذاتك أو بالأحرى الهجوم عليّ، لكني هنا اليوم لأدعي دون دفاع.. أرجوكِ اصمتي.. وأرجوك يا دكتور تحمَّلني. كيف لي أن أتصنع الغباء أو الغفلة إزاء خطايا وجرائم وقحة لا تتوارى خجلًا أمام القاصي والداني.. للأسف لم أستطع أن أحضرهم معكم في هذا القفص الوهمي.

مديري في العمل الذي لا يخجل من حديثه عن المناقصات المعروف أطرافها سلفًا، والزملاء الذين يعاونونه في ذلك لأن لهم حظوة عنده، وسعى الآخرين لأن يصيبهم الدور في تلك الحظوة الحرام، الزميلة المحترمة التي تحل ضيفة خلال وقت الدوام كله على مكتب أحد الزملاء المحترمين، تبثه همومها الزوجية ويبادلها همًّا بهَمّ، مجموعة

النسوة الفارغات المتحذلقات أكاد أن يصيبني الاختناق والغثيان يوميًّا من أحاديثهن الممجوجة. أنت نفسك يا دكتور، كيف لي أن أستقبل حديثك الناصح والمعالج وأنا أعلم أنك فاشل في حياتك الأسرية.. أعلم أنك مطلق مرتين.. وتسعى للزواج مرة ثالثة من تلميذتك الشابة التي تصغرك على الأقل بعشرين سنة.

كم من الوقت تقضيه مع أولادك؟ وأنت ما بين الجامعة والمستشفى الجامعي ومشفاك الخاص ثم العيادة التي نلتقي بها.. وما بين تلك المؤتمرات العلمية العالمية التي أصبحت من خلالها اسمًا عالميًّا في عالم الطب النفسي، وأخيرًا تلك الحلقات التليفزيونية الأسبوعية بالإضافة للأحاديث المتناثرة ما بين فضائيات عدة على مستوى العالم العربي وما بين أحاديث إذاعية، هل تستطيع أن تقنعني أنك ستساعدني على أن تستقيم حياتي وأنا أرى أن حياتك بهذا الاعوجاج؟ هل النجاح في نظرك.. أقصد في نظر مقاييس الصحة النفسية التي تعلمتها وتعلمها لتلاميذك وتعالج بها مرضاك تكمن فقط في أن تكون ذائع الصيت وافر الحظ في الشهرة والمال والمرضى والنساء؟ والأدهى من ذلك أنك كنت تتعامل معي بالقطارة.. عبارات حادة مقتضبة ليس لديك وقت لتستمع إلى كل ما أريد أن أقوله لك، كنت تكتفي بكم من العقاقير باهظة الثمن، عقاقير رغم ما حققته من فائدة نسبيًّا معي إلا أني أعرف أنها جزء

من صفقة عالمية تهيمن على مكامن الوجع والألم البشري وتتحكم في بواعثها ومنتهاها.

عالم من البيزنس الشيطاني يتجمل بلافتات ملائكية، منظمات دولية تحجون إليها ترعاكم وتبارككم بدعوى الإنسانية؛ لذا كان عليك أن تؤمن بعقاقيرها أكثر ما تؤمن بذلك التواصل الروحي بينك وبين مرضاك، ذلك التواصل الذي كنت أدفع ثمنه لكني لم أفلح في استقبال بثه فقد كان مشوشًا مبتورًا لا يكفي لمساندة البوح.

كنت أشعر أنني محاصر في زاوية مطلوب مني أن أختزل ضجيج مشاعري في بضعة جمل، وكأنني مغرد في موقع «تويتر».. بالطبع كان ورائي طابور طويل من المغردين، أقصد طالبي البوح.. جميعهم جاءوا سعيًا وراء صيتك الذائع وشهرتك الواسعة الممتدة عبر أثير الفضاء الكوني؛ ولذا كانت قيمة استشارتك تلتهم نصف راتبي.. ولم لا؟ ألست أنت النجم الساطع في سماء الطب النفسي؟ ترى من كان يجب عليه أن يدفع قيمة تلك الاستشارة؟ أبي أم أمي، أم عمتي أم زوجتي، أم زملائي في العمل، أم مديري، أم الجيران. وذلك المجتمع الدائر في فلك لا يعرف استقرار ولا رشد، أم ذلك النظام الحاكم برأسه وذيله وأحشائه الذي يمارس التسلط في امتصاص دمائنا إلى آخر قطرة من نخوة وكرامة، أم كل هؤلاء الأجداد الراقدون تحت الثرى في أمان وسلام بعد أن عاشوا

حياة طويلة صاخبة حافلة بالامتصاص كقطع إسفنج هم أيضًا؟ أتدري يا دكتور لماذا أعتزلكم؟ أشعر أنني عبارة سقطت من سياق الكلام، أو أنني جئت في زمن لا أنتمي إليه.

أتدري لماذا أخفى الله تعالى العدد الحقيقي لفتية الكهف؟ ربما لأن العدد قابل للزيادة في زمن آخر ومكان آخر وربما أكون أنا واحدًا منهم ممثلًا عن قومي بزمانهم ومكانهم، أعرف أنك لن تفهمني، تظن أنني أهذي، فلا أنت تنتمي إلى عالمي ولا أنا أنتمي إلى عالمك. لم أستطع أن ألتقيك أو ألتقي أي ممن ينتمون إلى عالمكم، ولم أستطع أن أدور معكم في نفس الفلك الذي تدورون فيه جميعًا، كيف لي أن أمارس الرياء والنفاق والتزييف تحت دعوى أنني لست مصلحًا للكون كما تقول لي زوجتي المنزعجة الآن.. كيف لي أن أتقبل أن أظل قطعة إسفنج تمتص كل ذلك في صمت متواطئ، كيف لي أن أتكيف مع ذلك الواقع؟، هل تستطيع أن تقول لي أن انسحابي من حياتكم لم يكن أمرًا منطقيًّا؟ لماذا أوصم بتلك الصفة: «مريض نفسي» ولماذا عليّ أن أتقبل ذلك في خضوع؟ ولماذا لا يصح لي أن أصفكم أنتم بتلك الصفة؟

ساد الصمت وأطبق على المكان الذي تسللت إليه الظلمة شيئًا فشيئًا واخترقته أصوات الكروان والغربان والضفادع وصرصور الغيط، وأخيرًا قطع الطبيب ذلك الصمت المسكون بزفرات القلق والتوتر، وقال بصوت بارد هادئ: أرجوك، عد بي حالًا حيثما كنت.

عدت به حيثما كان.. لكن شيئًا لم يعد كما كان، لم يفلح اعتذاري له ومنحي له «مسدس» العائلة الذي كان فارغًا، علاقتي بزوجتي تجمدت أو ماتت كان ذلك قبل السنة الأولى لي في هذا المشفى الحكومي للأمراض العقلية الذي استخدم طبيبي نفوذه في إيداعي به منذ خمس سنوات رغم أنه كان يعلم أن الجنون لم يكن إلا حالة استخدمتها عن إرادة مني ليوم واحد، يوم واحد قررت فيه أن أرفض أن أكون قطعة إسفنج، وأن أحيا فيه كما يحيى الرجال.

■■■

آن للغريب.. أن يرى حِماه(*)

يبدو أنه قد حان الموعد ليسدل الستار نهائيًّا عن ذلك الحلم، ستطفئ الأنوار، وتحل الظلمة ويطبق الصمت، ستجف المقل وتتحجر العبرات، ستستسلم الأكف المشتعلة وينطفئ سراجها، ستنعقد الألسنة وتكتم أنينًا يحاول أن يتسرب من مسمات الروح الذاهبة إلى محطات النهاية. نظراته البارودية تكاد تخترق قلبي ولا أدري هل هي مرآة لنظراتي له في المقابل أم أنني أكثر تسليمًا منه.. أم أنني لم أستوعب بعد أنها النهاية. كيف لا وأنا بالفعل أطفأت كل مصابيح الأمل بداخلي واستعددت للرحيل، لكن الذي لا أستوعبه حقًّا هو هذا الثبات وهذا الهدوء وهذه السكينة التي تلفني في تلك اللحظة الفاصلة المدججة بكل أسباب الفزع والأسى والقهر.

يكاد أن يتلاشى ذلك الخيط الرفيع جدًّا الذي يربط بيني وبينه على إثر الدخان الذي غطى ملامحه كلية إلا تلك النظرات النارية المترقبة. وبعض من نبضي ونبضه، وقد اختلطا فلم أعد أفرق بينهما ولم أعد أعرف من منا ما زال على قيد الحياة. التصق جسدي تمامًا بجدار يقابل جدارًا ضاعت فيه ملامح جسده

(*) مقطع من قصيدة: الرضا والنور.. شعر: طاهر أبو فاشا، ألحان: محمد الموجي

واتحدنا مع وجوم أحجاره التي لوحها السواد، نكتم أنفاسنا كي لا نأخذ جرعة أكبر من الدخان المشبع برائحة الدم واللحم وملايين من صور وذكريات كانت منذ ساعات قليلة حاضرة مفعمة بالحياة. نستعيد التقاط أنفاسنا في لحظة مسروقة لنكتمها من جديد خوفًا من أن ينتبهوا لنا، ولا أعرف إن كانت مشاعره مختلطة مثل مشاعري التي ترغب أحيانًا في أن ينتبهوا بالفعل إلينا فتخلصنا رصاصاتهم من تلك اللحظات المريعة وذلك الترقب الخانق آلاف المرات في لحظة واحدة.

أصوات أقدامهم تقترب شيئًا فشيئًا، وتدب على جدار قلبي المنتفض على وقعها.. «لا أحد هنا» قالها أحدهم بصوت مكتوم تحت كمامة وقته ما التهمته رئتانا من دخان أسود خبيث. وكأنه رغم ذلك يوفر على نفسه عناء البحث في ظلمة ملغمة بالجثث، لكنه آثر ألا يغادر وتغادر معه دقات حذائه العسكري قبل أن يلقي بجذوة لهب لتنهي آخر شك له بوجود أحياء في المكان وآخر شك لكلينا في النجاة، وكأنها بعثت بإشارة لصديقي المنقوش على الجدار المقابل لي بأن يريح مقلتيه المتشذرتين فأغمض عينيه وكأنه يتأهب لنوم سرمدي طويل.

في الوقت الذي منحتني فيه جذوة اللهب آخر خدمة بأن أتبين ملامحه من جديد تلك الملامح التي لم أكن أعرفها قبل شهر من هذه اللحظة. شهر كان بالنسبة لي عمرًا بأكمله، أو بالأحرى كان عمري الذي لم أعشه. والذي تخطى العشرين بعام ونصف، في أول لقاء لي بملامحه

التي لفتت انتباهي من بعيد وسط الزحام تشككت فيه وكدت أحذر من حولي من تلك القسمات التي بها قدر من الأرستقراطية الممزوجة بكثير من الترف الفاسد رغم محاولات التزييف.. ما جعلني اقترب منه لأتأكد أو أخمد قلقي تجاهه.. عباراته الناقصة المتآكلة المتوترة تشي بكثير من الممنوعات والمحرمات.. وعيناه المتوجستان الزائغتان تخبران عن خطأ ما أتى به إلى هنا إما عن قصد أو غير قصد. ورغم ذلك لا أعرف ما الذي ربط بيني وبينه.. بلا شك كانت البداية مهمة اسكتشافية. وقرار بأن أكون عينًا عليه، ثم شيئًا فشيئًا أصبحت عيني قلبًا، وأصبحت أنتمي له بشكل ما حتى سمحت لجموح خيالي أكثر من مرة بإبداع قصص من نسج أحلام اكتشفت أخيرًا أنني كنت أطوف حولها منذ أن وعيت لأدرك أني لقيط.

نعم تلك الصفة الصادمة التي هربت منها على مدى تلك السنين الهاربة أمامي الآن في لحظة كالبرق. كنت أنظر لكل وجه جديد بشك أنه ربما يكون أخي أو قريب لي، وكان هو آخر أبطال حكاياتي التي أنسجها يوميًّا في خيالي.. لكن تلك الحكايات نسيتها تمامًا حينما وطأت قدماي أرض الأحلام، أقصد هذا المكان الذي ارتبطت به بعلاقة شك بدأت بحذر وانتهت بأمنية، لكن القدر جعل منها حقيقة فأنا الآن أكاد أسلم آخر أنفاسي معه لتلك الحياة التي كنت على خصام معها عمرًا بأكمله إلا شهرًا، سنذهب سويًّا إلى حيث المستقر.

لا يهم إن كان أخي بالدم لكنه بالفعل أصبح أخي في الدم وفي الروح المستسلمة إلى أمر بارئها، وهذا ما اكتسبه كل ساكني المكان الحلم طيلة هذا الشهر.. آدم.. هذا هو اسمه.. ناديته وسط سحب الدخان الأسود الكثيف.. أنا على يقين أنه ليس اسمه الحقيقي فلم أكن أنا عبد الله الذي ادعيته وأخبرته به وأخبرت به الجميع هنا.. لكني رويدًا ما أيقنت أنه آدم بحق كما أنني أيضًا قد أكون آدم مثلما قد ينطبق على كلينا بل على جميع من هنا اسم عبد الله.. والآن ونحن على أعتاب نهاية واحدة لم أعد أعرف من فينا آدم ومن فينا عبد الله.. لا أعرف لماذا غيرت اسمي الحقيقي الذي عرفته منذ وعيت حين جئت إلى هنا.. الواقع أنني لم أجئ لكي أمارس الحلم الذي أتى بأغلب من سكن هذا المكان بقدر ما أتى بي الفضول أو الاستسلام لقدر كان يلح عليّ.. لم يكن هدفي كهدف الجميع لكنني سرعان ما ذبت مع الجميع وذاب هدفي الذي لم أكن أعرفه مع أهدافهم.. كنت أبحث عن مجتمع لا يسألني عن أصلي وتاريخي.. كنت أبحث عن أعين وقلوب وعقول لا تعرف ولا تريد أن تعرف سوى أنني «عبد الله».. وبالفعل جئت فلم يفتش في سوى عن أشياء ظاهرة قد تكون سببًا لعنف أو غدر.. سوى ذلك لم يفتش أحد أو ينبش قلبي وروحي أو أصلي الذي كنت أهرب منه دومًا.

كم كنت أمقت تلك الملامح الآدمية خارج هذا المكان.. بل الذي كنت أمقته أكثر هي تلك الوجوه والأيادي الحانية على ضعفي ويتمي؛ لأنها كانت تذكرني بأصلي الذي لا وجود له. فإذا بي هنا أصبح أنا ولأول مرة

يدًا حانية وكفًّا تمتد بالعطاء.. لأول مرة تصبح يدي يدًا عليا لا سفلى.. كنت يومًا ما لا أعرف لي وظيفة سوى الأخذ.. بنفس مكسورة وإحساس بالصغر والدونية.. حتى إنني ارتبكت قليلًا في أول الأمر حين جئت إلى هنا فلم أكن من قبل قد استخدمتها في بذل أو تفضل.. كان المشهد الأول بالنسبة لي مبهرًا مربكًا مرتعدًا مبتهجًا كطفل يحبو بخطواته الأولى نحو عالم الكبار كنت كذلك حين تلقفت فجأة زجاجات الماء المثلج واحدة تلو الأخرى وصوت يقول لي وزّع على صفك والصف الذي أمامك.. وتلاهم عدد من أطباق الطعام وحبات التمر.. ثم يدعوك أحدهم لتنظم معه مداخل ومخارج بعض الجموع، أو لتقف حاجزًا بين تكتلات الذكور والإناث.. أو لإقامة تلك الجنان الصغيرة جدًّا المسماة بالخيام.

كنت في البداية أبتهج وأنا أنظر في أعين المتلقين لعطاءاتي بإحساس بالعلو وكأنني مسئول كبير أنتظر ثناءهم، ثم شيئًا فشيئًا ذابت كل الوجوه واختلطت الملامح وذابت معها سذاجتي وأنانيتي.. ولم أعد أنظر لعين أو يد.. بل إنني أحسست ذات لحظة أنني لا أضع تلك الأشياء في يد بشرية، حقيقة أحسست أني أضعها في يد الله الذي توثقت صلتي به بشكل لم يحدث لي من قبل، أنا الذي عشت عمري البائس كله أنشد الحماية وأخشى الالتحام بجموع البشر، أصبحت واحدًا ممن يقفون بعض المناوبات الليلية لفرض الحماية وتأمين المكان، ونقل المصابين وإغاثتهم.

كانت ترعبني فكرة أن أختلط بالناس فأنا لا أعرف من منهم سيقبلني ومن منهم سيلفظني، ومن منهم سيغدر بي.. الآن أصبحت لا أعرف إن قدر لي أن أبقى على قيد الحياة كيف سأعيش دون تلك الجموع التي احتوتني واحتويتها بقلبي حتى صرنا كتلة واحدة لكنها آخذة في التلاشي الآن.. آدم.. ناديته مرة ثانية فجاءني صوته خافتًا متحشرجًا، لكنه لا يخلو من سخرية قائلًا: إنت لسه عايش؟ باغتني سؤاله الساخر فوجدتني أضحك بصوت عال وإذا به هو أيضًا يضحك حتى تحدت قهقهاتنا الهستيرية ذلك الدخان الكثيف الذي سارع بالإطباق على فمَّيْنا لتختلط ضحكاتنا بسعال شديد.. وأخيرًا استطعت أن أسرق بعض من إرادة لدفع قبضة ذلك الدخان الكثيف عن فمي ورئتي فقلت له: آدم، أريد أن أعترف لك بسر قبل أن نرحل. أنا لست عبد الله ذلك الصعيدي الذي قدم خصيصًا لذلك المكان الحلم الذي احتوانا معا لمدة شهر؛ ليعتصم به اعتراضًا على ذلك الانقلاب الذي يتربص بنهايتنا الآن. بل ذلك الزلزال المدمر اللعين، أو فلنقل تلك الصدمة الكهربية العنيفة التي أعادت النبض إلى أرواحنا التائهة الغائبة. أنا لست عبد الله الذي له أب، يعمل تاجرًا للمواشي بالصعيد كما أخبرتك وأخبرت رفاقنا، أنا مجرد عبد الله النكرة الذي ليس له أم أو أب أو إخوة. أنا عبد الله الصفة وليس الاسم.

عبد الله الذي وُجد رضيعًا على باب مسجد كهذا المسجد الذي نودع في رحابه الدنيا. وتربى أغلب سنين عمره في كنفه.. أنا عبد الله الذي وجد ضالته

أخيرًا هنا. أنا عبد الله الذي عرفته كما هو دون ماضيه الذي ليس له. وأنا عبد الله الذي لم يخنك ولم يخن أيًّا من هذا الشعب الذي ذبت فيه وذاب فيّ.

ضحك ضحكات متقطعة يخنقها ويضيعها الدخان والسعال والألم.. وأخيرًا نطق برصاصة قائلًا: وأنا لست آدم. وأعلم أنك تعلم أنني لست ذلك الشاب الذي يعيش أهله خارج مصر ووالده متوفى.. لكن ما لم تعلمه ولا علمه أحد هنا.. أن والدي ما زال حيًّا يرزق يتابع بشغف واهتمام وصلف حرق ذلك الحلم عن آخره ليرقص رقصة النصر على رمادنا. نعم، أنا ذلك الشاب الذي كان يؤمن على دعواتكم ويدعو معكم بأن يحرق الله قلب والدي عليه كما أحرق هو قلوب الأمهات الثكالى على أبنائهن.

نعم، أنا ذلك الابن لواحد من عتاة تلك العصابة التي ما زالت تعبث وتعربد على أشلاء أناس وجدنا فيهم أهلًا وقربى وسكنًا لم نجده في أهلنا الحقيقيين. أنا ذلك الابن الذي أزعجه التحدي لهيبة وهمية كنت أحتمي بها وأتعالى مزهوًّا بها.. كنت أصعد يومًا بعد يوم فوق أشلاء وأشلاء لأنظر إلى الدنيا ومن هم دوني بنظرة ازدراء.. ذات يوم كنت أنوي بالفعل أن أسافر لأقضي فترة الصيف لحين أن يقضي والدي على تلك «الشرذمة» الغاضبة.. أنا ذلك الولد الذي جاء إلى ساحة الحلم غاضبًا متنمرًا مستعدًا لقتل من يعترض طريقه، أولئك الذين يرددون دومًا ويهتفون بسقوط أبي ومن معه. سادة البلد وحكامها وحماتها.

يفترون عليهم كذبًا أنهم قتلة سفاحين. جئت إلى هنا لأحطم تلك الأكاذيب وأحطم رأس من يروجها ويعطل مسيرة حياتنا وحياة «الوطن».. وليتني ما جئت أو ليتني جئت في زمن آخر، وعمر آخر. كنت أظن أنها رحلة قصيرة لن تأخذ من وقتي الذي اختلسته قبل سفري ساعات.. بل الأرجح ساعة أو ساعتين سأفعل ما لم يفعله أبي «رحمة» بهم.. تصورت أنهم شرذمة بحق.. عدد قليل وأناس بلهاء دراويش مجاذيب.. جاءوا من أزمنة متخلفة لكنني رأيت عكس ذلك. شعب كامل من ألوان شتى.. بل إني لمحت سريعًا وجوهًا أعرفها من النادي، وسرعان ما هربت كي لا يكتشفني أحد.. اختبأت وسط البسطاء والقادمين من الريف.. زيفت قصصًا كثيرة.. وغيرت من ملامحي فحلقت شعري الطويل نوعًا ما وأطلقت لحيتي ولبست ملابس لم أتخيل يومًا أني سأرتديها، ارتديت جلبابًا وطاقية.. كما رأيتني بهما أول مرة.

لا أعرف ما الذي حدث لي تحديدًا.. وكأني انزلقت إلى كثبان من الرمال الناعمة، واستسلمت لها.. ودعت أهلي وأقنعتهم أني بالفعل مسافر إلى رحلتي الصيفية السنوية إلى أوروبا وأني سأنتظرهم ليلحقوا بي وطلبت منهم ألا يزعجوني باتصالاتهم، وكنت بالفعل كل فترة أتصل بهم من خطى الدولي لأطمئنهم عليّ، لا لأطمئن أنا عليهم.. كان عليّ بالفعل أن أعرفهم حجم الطمأنينة التي وجدتها على غير ميعاد، أكاد أقول إني كنت أبحث عنها ولا أعرف ما هي تحديدًا.

لم أتذوقها يومًا لأعرف ما هو مذاقها، لكنني فجأة عرفتها هنا واستعذبت ذلك المذاق. ذبت أنا أيضًا هنا وانصهرت حتى بت لا أعرف نفسي أو فلنقل إنني فجأة اكتشفت بداخلي إنسانًا.. إنسانًا آخر لم أكن أعرفه.. إنسانًا أحببته وسعيت أن يعيش ويبقى لينتصر ليس لحلمه الذي نبت من حلم تلك الجموع فقط.. ولكن لينتصر على سنين كنت فيها ميتًا يدَّعي الحياة.

الآن يا صديقي أشعر بكل الرضا والأمان وأنا أرحل معك.. نلحق بالراحلين قبلنا لنصبح أحياءً ندَّعي الموت.

■■■

فهرس المحتويات